

قَتُولِي فِي الْمَرَاةِ

بقلم
مصطفى صبري

بعناية
بسام عبد الوهاب الجبالي

الكتاب والكتاب
لطباعة والنشر

دار ابن خزم

ترجمة المؤلف مصطفى صبري

(١٢٨٦ - ١٣٧٣هـ = ١٨٦٩ - ١٩٥٤م)

مصطفى صبري : من علماء الحنفية . فقيه باحث . تركي الأصل والمولد والمنشأ . ولد في توقات (مدينة في شمال تركيا على نهر قزل أرمق) وتعلّم في قيصرية (مدينة تركية ، تقع إلى جنوب غرب توقات في الأناضول) . وعُيّن مدرّساً في جامع محمد الفاتح في إستانبول وهو في الثانية والعشرين من عمره . ثمّ تولّى مشيخة الإسلام في الدولة العثمانية . وقاوم الحركة الكمالية (أي : ما نادى به وقرّره كمال أتاتورك) بعد الحرب العالمية الأولى . وهاجر إلى مصر بأسرته وأولاده سنة ١٩٢٢م .

أفضل مصدر يحدّثنا عن حياته هو ما ذكره في أوّل كتابه « موقف العقل » حيث يقول :

إلى روح والدي ...

كان أعظم أمانيك في أمري . . رحمة الله عليك وعلى والدتي التي لم تكن تساهمك فقط ، بل تسابقك فيما يرجى فيه رضى الله تعالى ، حتى أنّي كنت أقنعته قبلك - وأنا في ملتقى الشباب والصبا - بأن تأذن لي وتستأذنك في السفر لأول مرة إلى قيصرية المشتهرة بعلمائها بين مدن الأناضول . . . كان أعظم أمانيك أن أجتهد في طلب العلم وأصبح عالماً من علماء الدين . وكنت في رغبتك هذه أشدّ شرهاً

من المنهومين^(١) ، حتى إنك لما أتيت الإستانبول من بلدنا توقاد ، ورأيتني مدرّساً في جامع السلطان محمد الفاتح - الذي كان في عهد الدولة العثمانية كالأزهر الشريف بالقاهرة ، وأفضل من الأزهر الحاضر - وأنا يومئذ في الثانية والعشرين من عمري ، قلت لبعض أصدقائك عني : « استأذني لطلب العلم في الآستانة بعد القيصرية^(٢) فما لبث أن حصل على شهادة العالمية وترّبّع على كرسي التدريس . وكان الواجب عندي أن يستمرّ في التعلّم حتى يبلغ الثلاثين على الأقل » .

وقد كنتُ رحمك الله على حق في استقلال مكتسباتي العلمية ، لكن استعجال القدر في أمري ظهرت حكمته بعد أن عاينت ما كان ينتظرنني من وقائع الحياة الهامة . ثم كان ثاني ما لم يسرّك من موقف يومئذ أي توليت وظيفة التدريس بمرتبة من الحكومة ، وكان هذا على الرغم من أنك لست بذي ثروة تكفلني وأسرتي المستقبل . وبالقياص على هذا لا أرتاب في أنك لو كنت حيّاً يوم تولّيت منصب المشيخة الإسلامية في الدولة العثمانية ما ازددت مكانة عندك وحصولاً على مرضاتك .

ولكنك لو رأيتني وأنا أكافح سياسة الظلم والهدم والفسوق والمروق في مجلس النواب وفي الصحف والمجلات قبل عهد المشيخة والنيابة وبعدهما ، وأدافع عن دين الأمة وأخلاقها وآدابها وسائر مشخصاتها ، وأقضي ثلث قرن في حياة الكفاح ، معانياً في خلاله ألوان الشدائد والمصائب ، ومغادراً المال والوطن مرتين في سبيل عدم مغادرة المبادئ ، مع اعتقال فيما وقع بين الهجرتين ، غير محسّ يوماً

(١) « منهومان لا يشبعان : طالب علم وطالب دنيا » . « الحديث » .

(٢) أخذت العلم في القيصرية عن الشيخ محمد أمين الدوركي الشهير بدائم الحاج طرون أفندي ، وقبلها في بلدنا توقاد عن تلميذ أستاذي في القيصرية الشيخ أحمد أفندي زولية زاده إلى آخر التصورات من شرح الشمسية للقطب الرازي ، وأخذت في الآستانة عن محمد عاطف بك الإستانبولي وعن أحمد عاصم أفندي الكوملجنوي الذي كان وكيل الدرس في المشيخة الإسلامية ، والذي زوجني بنته بعد أن تولّيت التدريس . فأولئك أساتذتي وشيوخني تغمّدهم الله برحمته .

بالندامة على ما ضحَّيتُ به في هذه السبيل من حظوظ الدنيا ومرافقها ؛ لأوليتني إعجابك ورضاك .

وهذا الكتاب الذي وضعته في سنواتي الأخيرة ، سنوات التوقف في المهجر عن الجهاد السياسي ، متفرغاً للجهاد العلمي الديني ، والذي كتبت فيه ما يحتاج المتعلّم المسلم إلى معرفته من المسائل العلمية والفلسفية لتسلّم عقيدته الدينية وتصمد أمام تيارات الزيغ العصري وناضلتُ أشتاتاً من أهل العلم والأدب في الشرق والغرب أحياءً وأمواتاً^(١) . وقد توغلت في طريق الجهاد حتى جاهدت مع الذين ناضلتهم ، عجمة قلمي عند الكتابة . . . هذا الكتاب أرجو أن يكون مما يرضيك ويتفق مع ما كنت تتوقع مني بعد طلب العلم ، وأنا أحتسب في رضاك هذا رضى ربي سبحانه وتعالى^(٢) .

ومن المصادر النادرة التي نستفيد منها ترجمة لحياته ، كتاب الدكتور محمد محمد حسين « الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر » ، نقلاً عن الأستاذ إبراهيم بن مصطفى صبري المتوفى في أيلول / سبتمبر عام ١٩٨٩ م ، أستاذ اللغات الشرقية بجامعة الإسكندرية سابقاً إذ يقول : غادر الشيخ مصطفى صبري الأستاذة فراراً من الكماليين، قبيل استيلائهم عليها سنة ١٩٢٣ م ، فحضر إلى مصر ، ثم انتقل إلى ضيافة الملك حسين في الحجاز . ثم عاد إلى مصر ، حيث احتدم النقاش بينه وبين المنتمين لمصطفى كمال ، فسافر إلى لبنان ، وطبع هناك كتابه « النكير على منكري النعمة » ، ثم سافر إلى رومانية ، ثم إلى اليونان ، حيث أصدر جريدة « يارن » ومعناها : « الغد » . وظلّ يصدرها نحو خمس سنوات ، حتى أخرجهته الحكومة اليونانية بناء على طلب الكماليين . فاستقرّ في مصر إلى أن توفي بها سنة ١٩٥٤ م = ١٣٧٣ هـ .

(١) وبعضهم كانوا أحياء في أثناء تأليف الكتاب ، ثم ماتوا قبل نشره .

(٢) « رضى الرب في رضى الوالد » . « الحديث » .

وقد بدأ مصطفى صبري نشاطه السياسي بعد إعلان الدستور الثاني سنة ١٩٠٨م إذ انتُخب وقتذاك نائباً عن بلده توقاد في الأناضول ، فبرز اسمه وقتذاك لمقدرته الخطابية ، ولم يلبث حين تبيّن سوء نية الاتحاديين أن انضم إلى الحزب الذي تألف من الترك والعرب والأروام الذين يعارضون النزعة الطورانية التي اتّسم بها الاتحاديون وقتذاك . وكان نائباً لرئيس هذا الحزب المعارض .

ولما استُفحل نفوذ الاتحاديين فرّ من اضطهادهم سنة ١٩١٣م ، فأقام في مصر مدة ، ثم تنقّل في بلاد أوروبة ، حتى عاد إلى الأستانة مقبوضاً عليه عند دخول الجيوش التركية إلى بوخارست في الحرب العالمية [الأولى] ، حيث كان يقيم لاجئاً إليها وقتذاك . وقد ظلّ معتقلاً إلى أن انتهت الحرب بهزيمة تركية ، وفرّ زعماء الاتحاديين ، فعاد إلى نشاطه السياسي في الأستانة ، وعُيّن شيخاً للإسلام وعضواً في مجلس الشيوخ العثماني ، وناب عن الصدر الأعظم في رئاسة الوزارة أثناء غيابه في أوروبة للمفاوضات . وظلّ في منصبه إلى أن استولى الكماليون على العاصمة ، ففرّ إلى مصر^(١) .

من مؤلفاته بالعربية :

- « موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين » أربعة مجلدات ؛ القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٩٥٠م وما بعدها .

- « موقف البشر تحت سلطان القدر » القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٩٣٣م ، ٣٠٠ صفحة .

- « النكير على مفكري النعمة في الدين والخلافة والأمة » .

- « مسألة ترجمة القرآن » ، القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٣٥١هـ .

(١٩٣٢-١٩٣٣م) . ١٤٦ صفحة .

- « القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون » القاهرة ،

عيسى البابي الحلبي ١٩٤٢م ، ٢٢٤ صفحة .

وله مؤلفات بالتركية كثيرة ، بعضها مطبوع .

مصادر ترجمته :

مقدمة «موقف العقل والعلم والعالم» ، مجلة «الهداية الإسلامية»
٣٣٣/٤ ، «الأعلام» للزركلي ٢٣٦/٧ ، الصحف المصرية ١٣/٣/١٩٥٣ م .

هذا الكتاب :

هو نص مقالتين نشرتا في صحيفة «الفتح» ، ثم نشرتا معاً ككتاب
سنة ١٣٥٤هـ = ١٩٣٥م في المطبعة السلفية بالقاهرة .

تمثل هاتان المقالتان وجهة نظر المنادين بالحجاب والمدافعين عن أحكام تعدد
الزوجات ، وهي وجهة نظر جديرة بالبحث خاصة وأن الطرف الآخر يعرض
ما يريد إلى الآن إن من حيث العمل والفعل أو من حيث القول والكلام ؛ إذ
ما زالت هاتان المسألتان تشغلان الحياة في العالم العربي والإسلامي .

والكاتب مصطفى صبري ينطلق في ما يكتبه من عقيدة إسلامية ، ورؤية
واضحة ، وعزة وكرامة وشخصية قوية ، ويقول ما يقول بعد تجربة مريرة عاناها
من خلال ما رآه في تركية الكمالية ، فهو يحذر وينبه بكل صدق وإخلاص الظاهر
من خلال كلامه . في جميع الأحوال ، فالكتاب وجهة نظر إسلامية حول قضيتي
تعدد الزوجات والسفور ؛ جديرة بالقراءة والإطلاع كي يُعرف رأي المسلمين في
هاتين القضيتين .

هذه الطبعة :

هي إعادة لما نشر عام ١٣٥٤هـ ، بزيادة ضبط . نرجو أن نكون يسرنا نصاً
مفيداً ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

بِسْمِ عبد الوهاب الجابي

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه
أجمعين .

أما بعد ، فقد كانت مسألة المرأة قبل زمان غير بعيد أعظم فارق بين الشرق والغرب والإسلام وغيره في المجتمع ، حتى أنه لم يكن يخطر بالبال أن يجد الغرب في مرآته المكشوفة مُقلداً من الشرق المسلم المشهور بغيرته على نسائه مهما قلد في غيرها ، لكن الأسف أن غيرته على نسائه زالت مع غيرته على إسلامه ، وربما كان زوال الأولى جزاء من الله تعالى في الدنيا على زوال الثانية .

ثم إن من نظر إلى مظاهر الغرب بحسب أهله يعبدون المرأة ويحلوها بهذا الحد ، ومن هذه المظاهر اعتبرت المرأة الشرقية مقهورة منكودة الحظ ، لكن الحقيقة أن الغربيين ومقلداتهم منا يعبدون هوى أنفسهم في عبادة المرأة ، وما لإجلال الرجل العصري المرأة وتقديمه إياها على نفسه إلا نوعاً من الضحك على ذقنها لمخادعتها وجعلها أداة اللهو واللعب ، كما أن إخراجها من خدورها وستورها معنا إنزالها من عرشها المنيع إلى أسواق الابتذال ، حتى إن اشتراكها في أعمال الرجال الذي هو معدود من انتصارها وفوزها بالحقوق التي تخوّلها إياها مساواتها المدعى لها بالرجل ، ما هو إلا احتمالها لأعباء الحياة القاسية التي لم يقم رجال الشرق بها بعد حق القيام فضلاً عن نسائه ، مع أن احتمالها لتلك الأعباء

يَقَعُ بطريق مَزَاحِمَتِهَا فلا جرم أن عدم قهرِها يكون مَبْنِيًّا على مسامحة الرجال لها مقابل استفادتهم من أُنُوْبَتِهَا ، وفيه ابتذال المرأة ، وقد كانت هي في الشَّرْقِ خَيْرَ عَوْنٍ للرجل ، تساعدُه في داخل بَيْتِه ، وتشترك معه في أعمال الحياة ، وهي ملكة دَوْلَةِ العائِلَةِ زوجةً أو أماً . وكلامنا في جنس المرأة الشرقية المسلمة الحائِزَةُ لحقوقها ، فلا يُعْتَرَضُ علينا ببعض الزوجات المنكودة الحَظُّ من أزواج ظالمين قساة المعاملة مع أهلهم ، فالواجب إصلاح حالاتهن في دائرة المدنية الإسلامية ، وليس الشرعُ بعاجزٍ عن تأديب الظَّلَمَةِ مهما كانت صفاتهم .

فالمرأة الضعيفة في القَوَى الجسمانية الضعفُ الذي هو مُعْتَرَفٌ به في قول أفلاطون الحكيم عن مساواتها بالرجل ، ذلك القول القديم الذي تمسك به أنصار المرأة الحديثة ، وسيأتي ذكرُه في مقالة السُّفُور والاحتجاب^(١) ، إن كانت مضطهدة عند كَوْنِها زميلةً للحياة للرجل ومساعدته في بيته كما هو موقف المرأة الشرقية المسلمة ، فَلأن تكون مضطهدة ومقهورة عند كونها مزاحمة في أعمال الحياة وطُرق المعيشة أولى ، وليس لها موقفٌ حرٌ ممتازٌ خالٍ عن الاضطهاد إلا موقف كونها أداة اللُّهُو واللَّعِب للرجال ، فالذين يعملون لحرِّيَةِ المرأة الشرقية كأختها الغربية يشوبون موقف مزاحمتها بهذا الموقف الأخير المُزْرِى ، فيزعمون لها السلامة من الاضطهاد في موقف المرأة أيضاً ، كما أن السفوريين يحاولون أن يُكْسِبُوا المرأة مكانةً بأن يكون الرجال الأجانب عنها ، الذين يرونها ويخالطونها ، مزاحمين لزوجها عليها .

وفي مَذْهَبِنَا أن ضَعْفَ المرأة في القُوَّة الجسمانية المُعْتَرَفُ به عند معارضينا مع طماعِيَةِ الرجال فيها طَبْعاً وعدم استغنائها عنهم ، ثم بقاء الأثر فيها من الاقتران بالرجل ؛ كُلُّ ذلك يَمْتَنِعُ استقلالها في الحياة ، ويَحْتِمُ عليها أن لا تعيش قَرْدًا ، وأن لا تكون عُرضَةً للرجال ، وأن تَنْحَصِرَ لواحدٍ منهم ، وتتجنَّب كُلَّ ما يُخِلُّ بهذا الانحصار من قريب أو بعيد .

هذا إجمال ما تحتويه المقاتلتان الآتيتان في مبدأ تعدد الزوجات وفي السفور والاحتجاب ، المسألتين اللتين لا يزال يدور حوليهما النقاش بين الفئة المتمسكين بدينهم وتقاليدهم ، وبين الفئة العائشين بأبدانهم في الشرق وقلوبهم في الغرب ، وسيرى القارئ بعد ما أحاط بالمقاتلتين علماً؛ أن العقل والنقل والفضيلة كلها تؤيد الفئة الأولى ، إلا أن الفئة الثانية على أبصارهم غشاة من الشهوات ، وفي أعناقهم أغلال التقليد القائلة : إنا وجدنا قذوتنا وقبلنا الغربيين على أمة ، وإنا على آثارهم مهتدون .

فلا تحسبوا أن الأولين مقلدون لأبائهم ، وقائلون : إنا وجدنا آباءنا على أمة . الخ ، والآخرين مستدلون ماشون في طريقة العقل والتفكير ولو قالوا لكان لهم بعض المَعذرة ، حيث أن تقليد الآباء أقرب إلى الرشد من تقليد الأجانب ، مع أن تقليدهم أعمى خالص العمى في حين أن تقليد الأولين له من العقل والفضيلة نصيران .

مصطفى صبري

شيخ الإسلام للدولة العثمانية سابقاً

مبدأ تعدد الزوجات

معلوم أن مسألة المرأة لا زالت أعظم المسائل الاجتماعية في الأعصر الحديث ، وأكبر ما تفتقر به الحضارة الغربية عن حضارة الإسلام ؛ ولا زال تعدد الزوجات أول ما ينتقد به الإسلام ، وأشهر نواحي الضعف الذي يلتأت به نظر الغربيين ومن ينظرون الأمور بمنظارهم من المسلمين ؛ حتى إذا عُنَّ لبعضهم الاعتذار عن حُكم دينهم فيه ، كانت غاية ما يتمسك به أن تعدد الزوجات ليس بضروري في الإسلام ، وأن جوازَه محاطٌ بشروط تجعله مستحيل الوقوع ويفوته أن الاعتراف بجواز تعدد الزوجات مبدئياً ضروري للمسلم ، وأن شروطَه لا تجعله مستحيلاً ، وإلا كان تشريعه عبثاً ولغوياً ، وكان فعل الصحابة العاملين به معدوداً من طلب المُستحيل .

وقد كنتُ أشبعتُ الكلام عن هذه المسألة في كتابي الذي ألفته قبل ثلاث عشرة سنة باللغة التركية ، ولما كان البحثُ والنظرُ فيها من بعض الكتابين مستأنفاً في الأيام الأخيرة على صفحات بعض الجرائد ، أردتُ أن أقول قولي فيه .

إن ما يرمي إليه الإسلام في معاملة النكاح والزواج هو النسل وقضاء الحاجة البشرية إلى المناسبات الجنسية بشكل مشروع . ولا يتعدى جميع الأديان وقوانين الحضارة في مرماها عن هاتين الغايتين ، فيفهم أن الدين والعقل مجمعان على مراجعة الشكل المشروع في المناسبات بدلاً من غير مشروعها ، ومتى دعت حاجة أي رجل إلى الاقتران بأية امرأة فلا سبيل إليه عند العقل والنقل إلا سبيله المشروع ، أي : الزواج . وما دام في الدنيا رجل لا يكتفي بما عنده من زوجة وحيدة ويبحث بعينه ويرجله عمن عداها ، فالاعتراف بمبدأ تعدد الزوجات

ضروريّ إلا لمن يشدّ عن طريق العقل والنقل ويبيح الزنا ، أو لمن يغضّ بصره عن الحقائق وينكر وجود الزناة في الدنيا بين الرجال المتزوجين ، أو لمن يتقاصر حِجَاهُ عن إدراك التلازم بين منع تعدّد الزوجات وإباحة الزنا لبعض الرجال .

فهذا القدر من الكلام يكفي تغليب حُجّة القائلين بمدّ تعدّد الزوجات وإدحاض حُجَج المعارضين من دون حاجة إلى إطالة النقاش ، وإني لا أبرح على طول طريق المناظرة أتعلّق بالمقارنة بين النكاح والسّفاح ، وأكتفي بترجيح تعدّد الزوجات للذين تسوقهم شهواتهم إلى الاستمتاع بأيّ امرأة لا يحلّ لهم ذلك في نظر الشرع ، سواء كان استمتاعهم بوقائعها أو بتقبيلها أو مخاصرتها أو النظر إليها ، وأخصّ هؤلاء اللصوص لصوص الأعراض بوضعهم موضع الخلاف بين أنصار تعدّد الزوجات وأعدائه ، فالإسلام عفيف ، لا يبيح استمتاع الرجال بغير نسائهم اللاتي يوجد بينهم وبينهن عقد شرعي ، فإذا شعروا بحاجة إلى ذلك يجب عليهم أن يأتوه من بابه ، ويتوسّلوا إليه بعقود ثابتة ، فيعلم الشرع ويعلم الناس أنّ هذه المرأة زوجة ثانية لهذا الرجل ، ولا يرضى الإسلام أن يدع علاقات الرجال بالنساء سرقات ، ويدعهن صيداً لمن قنص أو ملعبة للفساق . زوجة ثانية ! نعم ، هذا الاسم يثقل على ألسنة المفتونين المُستبدلين بعقلياتهم وآدابهم الاجتماعية عقليّات الغربيّين وآدابهم ، المشتريّن الضلالة بالهدى . وليت شعري ! كيف يجدونه عند المقارنة باسم المتزنيّ بها ، التي يُعبّرون عنها بالخليلة سراً لمعابّتها وتخفيفاً لفضاحتها ؟! ولا يعترف الشرع ولا القانون بهذه الخلّة ، ولا يُجهر بها في المجتمع ، وإنما يتهامس بها الأخلاء - أي : الزناة - فيما بينهم .

ولقد دهشتُ عندما قرأت قول أحد الكاتبين بهذا الصّدّد : « لو سألنا أيّ امرأة : هل تُفضّل أن ترى زوجها يتزوج من امرأة أخرى أو يخادنها فقط ؟ لقلت : بل أفضل أن يخادِن ألف امرأة غيري ، لأنّه قد يعود إلى صوابه فيعود إليّ وحدي » .

وأنا أقول : ماذا عسى أن يكون قَدْرُ امرأةٍ تَفْضُلُ أن تكون زوجةَ رَجُلٍ يَخَادِنُ ألفَ امرأةٍ على كَوْنِها الزوجة الأولى لرجلٍ عَفِيفٍ ؟ وماذا يكون قِيَمَةُ قَوْلِ تلك المرأة الساقطة الحسِّ والشعور بهذه الدرجة وقيمة تقديرها الرجال ، وهي لا تَقْدُرُ العِفَّةَ قَدْرَها ؟ أَفَمِثْلُ هذه المرأة يَنْصِبُها الكَاتِبُ حَكَمًا ويجعل قولها الْفَضْلَ في مسألة هامة اجتماعية كهذه ؟! وهل يمكن أن يقولَ أحدُ من الرجال : لا أَمْنَعُ امرأتي أنْ تَخَادِنَ ألفَ رجلٍ ، فحسبي أنها قد تعود إلى صوابها وتعود إليَّ ؟!

وإني قد كنتُ قبل خمس وعشرين سنة أنشأت قصيدة تركية موضوعها تحاورُ امرأتين ، ونَشَرْتُها في صحف الأستانة تحدياً لمقلدي الغرب المُسْتَهْجِنين لمبدأ تعدد الزوجات ، فعَبَّرْتُ فيها - بلسان إحدى المتحاورتين - عن المرأة التي يتزوج بعلمها بامرأة ثانية فلا ترضاه ، ولا يَشُقُّ عليها أن يَخَادِنَ النساءَ فترضاه ؛ بامرأة ذات قَرَنَيْنِ .

ولو سألتُ الكَاتِبَ الذي يَصِفُ في أوَّلِ مقالته أعداءَ تعدد الزوجات بأنهم حاملو لواء المدنية : هل فيهم هذه المرأة التي يُحْكِي عنها أنها تبيع لزوجها أن يَخَادِنَ ألفَ امرأةٍ فتحمل ألفَ قرن ؟!

وَمَنْشَأُ استسهال الكَاتِبِ تقويلَ أيِّ امرأةٍ بذاك القول تَفْشِيُ الْفِسْقَ بين الرجال ، حتى عَمَّتْ بَلِيَّتُهُ ، فهَانَ على النساءِ اختيار أزواجهن من الْفُسَّاقِ ، وهَانَ على الرجال أن يُحْبَذُوا هذا الاختيار .

والكَاتِبُ يَعُدُّ الرجلَ الذي يُعْقِبُ أولاداً من زَوْجَتَيْنِ آثِماً ، فكأن أولاد الزوجة الثانية أعداء يُدْخِلُهُم الرجلُ في الأسرة ، ولا يعلمه آثِماً إذا أَدْخَلَ فيها وَلَدَ زُئِيَّةٍ ، ولعله يتغاضى عنه كما تتغاضى الزوجة عن خلية زَوْجِها وولده منها ، أو يعتبرهما في حُكْمِ الْعَدَمِ كما اعتُبرَت هي ، لأنها مجهولان عندها وعند الناس ومعدومان . ولقد دَقَّ نظر الإسلام حيث رأى في الزنا قَتْلَ نَفْسٍ وإعدامها ، وجازاه بمثله .

أما ما ذَكَرَهُ مِنْ معاداةِ بَنِي الْعَلَاتِ^(١) بعضهم بعضاً ، فمِنْشَأُ ذَلِكَ نَفْصَانِ التَّريَةِ الدِّينِيَةِ الْوَاجِبِ تَدَارُكُهُ . وماذَا يَقُولُ الْكَاتِبُ فِيْمَنْ يَحَافِظُهُمْ مِنْ بَنِي الْأَخْيَافِ ؟^(٢) وَفِي الْمَعَادَاةِ الْمُمَكِّنَةِ الْوُقُوعَ فِيهَا بَيْنَهُمْ ؟ فَهَلْ يَتَصَوَّرُ سَنَ قَانُونٍ يَمْنَعُ زَوَاجَ امْرَأَةٍ مَاتَ عَنْهَا زَوْجُهَا أَوْ طَلَّقَهَا بِزَوْجٍ آخَرَ لئَلَّا تَلِدَ مِنْهُ أَوْلَاداً يَعَادُونَ مَنْ وَلَدَتْهُمْ مِنَ الزَّوْجِ الْأَوَّلِ كَمَا يَتَصَوَّرُ سَنَ قَانُونٍ يَمْنَعُ تَعَدُّدَ الزَّوْجَاتِ ؟ بَلْ هَلْ يَتَصَوَّرُ سَنَ قَانُونٍ يَمْنَعُ الرِّجَالَ بَعْدَ مَوْتِ زَوْجَاتِهِمْ أَوْ مَفَارَقَتِهِنَّ بِالطَّلَاقِ ، أَنْ يَتَزَوَّجُوا مَرَّةً ثَانِيَةً ، فَيَلِدُوا بَنِي الْعَلَاتِ ، وَيَحْصُلَ بَيْنَهُمُ الْمَعَادَاةُ ؟

فَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ أَعْدَاءَ تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ الَّذِينَ لَا زَالُوا يَتَعَقَّبُونَ مَا فِيهِ مِنَ الْمَحَافِظِ الْاجْتِمَاعِيَةِ وَيَتَّبِعُونَهَا ، يُمْكِنُ مَعَارَضَتَهُمْ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ بِالزَّنا وَمَا فِيهِ مِنَ الْمَضَارِّ وَالْوَيْلَاتِ ، ثُمَّ لَا يُمَكِّنُ عِنْدَ الْعَقْلِ السَّلِيمِ تَفْضِيلَ الزَّنا عَلَيْهِ وَتَفْضِيلَ وَيْلَاتِهِ عَلَى تَبْعَاتِهِ ، وَلِذَا قَالَ مَظْهَرُ عَثْمَانَ بَكِ الطَّبِيبِ التَّرْكِيِّ الْكَبِيرِ الْأَخْصَائِيِّ الشَّهِيرِ فِي الْأَمْرَاضِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْعَصَبِيَّةِ فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّى « الطَّبُّ الرُّوحِي » :

« الْاِكْتِفَاءُ بِالزَّوْجَةِ الْوَاحِدَةِ (Monogamie) عَلَى مَا يُرَى فِي أَوْرُوبَةِ إِثْنَاهُو مَظْهَرٌ (Etiquette) كَاذِبٌ بَعِيدٌ عَنِ الْحَقِيقَةِ ، فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّهُ لَا يَمْنَعُ الْفُسْ ، فَالْأَوَّلَى أَنْ نَحْتَرِمَ تَعَدُّدَ الزَّوْجَاتِ الْمَشْرُوعِ فِي دِينِنَا بَدَلًا مِنْ أَنْ لَا نَكْتَرِثَ بِهَذَا التَّوَسُّعِ الضَّرُورِيِّ فِي الْفُسْ وَالْفُجُورِ » .

وَتَكَلَّمَ الْكَاتِبُ الْمَعَارِضُ فِي عَدَدِ الرِّجَالِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى النِّسَاءِ ، وَقَالَ : « إِنْ قَامَتْ حَرْبٌ وَمَاتَ فِيهَا عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الرِّجَالِ ، أَمْكَنَّا حِينَئِذٍ أَنْ نَرْجِعَ إِلَى دِينِنَا وَإِلَى تَطْبِيقِهِ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الزَّمَانِ » وَإِنِّي أَوْصِيهِ بِالرَّجُوعِ إِلَى دِينِهِ مِنْ غَيْرِ تَرْتُّبٍ ، وَقَدْ قُلْتُ فِي كِتَابِي الْمَذْكُورِ :

(١) أولاد الرجل من أمهات مختلفات .

(٢) أولاد المرأة من آباء مختلفين .

« بناءً على كون غَدَدِ النساء أكثر من الرجال ، أو تقليل الحروب عددهم ، أو عدم رغبة بعض الرجال في الزواج ، أو رغبة بعض النساء الحُرَّة في اختيارها في الزواج بِنَعَضٍ مُعَيَّنٍ من الرجال المتأهلين ، بناءً على أيِّ سَبَبٍ من الأسباب ؛ فقد توجَدُ امرأةٌ يمكن أن تكون زوجةً ثانية لأيِّ رَجُلٍ حتى يتحقَّق تعدُّد الزوجات في ساحة الوقوع ، وَحَسْبُكَ هذه المرأة زائدة في المقارنة بين عدد الرجال والنساء ، فإنَّ لَمْ توجَدُ تلك المرأة فلا محلَّ حينئذٍ لتعدُّد الزوجات ، ولا لشكاية الشاكين منها ، ثم إن دفاعي عن تعدُّد الزوجات لَمَّا كان بالنسبة إلى الزَّنا والسَّفاح ، ففي استطاعتي إثبات زيادة النساء على الرجال بوجود نساءٍ في كل بلدة يَعْمُرْنَ بِنَعَضٍ أعراضهنَّ ، من غير حاجة إلى سَوِّق المسألة إلى أودية بعيدة ، ولا عليَّ أَنْ أُثَبِّتَ كونَ هذه النساء زائدات في المقارنة بين نفوس الذكور والإناث بكلِّ بلدةٍ يوجدن فيها ، فهأُنَّ ظاهراتٌ فيها بمظهر الزيادة ، فعلى الرجال الذين لا مندوحة لهم عن الاقتران بهنَّ أن يتزوَّجنَّ سواء كانوا متزوَّجين قبل ذلك أو عزَّاباً ، ويجعلوا ما يعطونهن ثمن العِفَّة نفقةً الأهل . إِنِّي أُلْزِمُهُمْ ذلك ، ولا يرضاه المعارضون لأنهم يحاولون أن يبقى الرجال دَوَّماً بموقف يسهل عليهم تبديلهنَّ غيرهنَّ ، وبه يظهر أنَّ المعارضين لا يرضون التحديد الذي يتضمنه تعدُّد الزوجات ، بالرغم من أنهم يَشْكُون التعدُّد ، ولذا قال أحد أدباء أوربة : « إِنَّ للمسلمين أَنْ يَقْتَرِشُوا النساء إلى أربع ، وللغربيين الذين يعدُّون أنفسهم أرقى مدنيةً منهم أَنْ يفتَرِشوهنَّ إلى ما شاءوا من العَدَد » .

« وكأني بالمعارضين يتعجبون من قولي ، ويقولون : كيف يتزوَّج كلُّ رجلٍ مِنَ التي أراد أن يزني بها ؟ وربما تكون من المومسات ، وتسكن بيتاً من بيوت الدعارة الجهرية أو السرية ، وتعرض نفسها على مَنْ طَرَقَ بابها ؟ فكيف تنفق الكرامة وهذا الزواج ؟ ولكني أعودُ فأزيدُ في تعجبهم قائلاً : إِنَّ الزواج منها لا يُجِلُّ بالكرامة الإنسانية قدرَما يُجِلُّ الزنا بها ، وإنَّ الرجلَ مهما بَلَغَ من الكرامة

فهو يسقط في ذك امرأة يريد أن يَزنّي بها ، لكن الزّواج لا يحطّ من كرامة الرجل ، وإنما يعلي المرأة ويُنجيها من سَقَطِهَا .

أما قول الكاتب : « ومن حقّ المرأة أن تستأثر بزوّجها ، وأن تستأثر بِحُبِّه وأن تقول له في علانية : إِنَّ أَنْتَ ضَمَمْتَ إِلَى صَدْرِكَ امرأةً أخرى فلسوف أضُمُّ إلى صُنْري رجلاً آخر ؟ » فَإِنَّ العَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالسِّنَ بِالسِّنِ ، وكان هو قد حكى عن أيّ امرأة قَرَضْنَا أَنْ سَأَلْنَاهَا أَنَّا تَفْضَلُ أَنْ يَخَادِنَ زَوْجُهَا أَلْفَ امْرَأَةٍ غَيْرَهَا عَلَى أَنْ يَتَزَوَّجَ مِنْ امْرَأَةٍ ثَانِيَةٍ كَمَا سَبَقَ نَقَلُهُ مِنَّا مَعَ التَّعْلِيلِ عَلَيْهِ ؛ فعند الجمع والتوفيق بين هذين القولين ، تكون النتيجة أَنَّ تلك المرأة التي يَخَادِنُ زَوْجُهَا أَلْفَ امْرَأَةٍ سَوْفَ تَضُمُّ إِلَى صَدْرِهَا أَلْفَ رَجُلٍ ، لِأَنَّ الْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالسِّنَ بِالسِّنِ ! بالرغم من إباحتها لزوّجها تلك المخادنة الغير المحدودة في ضِمْنِ تفضيلها على تزوّجها من واحدة ! ولعلّ تفضيلها أن يَخَادِنَ عَلَى أَنْ يَتَزَوَّجَ لِيُمْكِنَها الاقتصاص منه ، إذ لا يُمكنها أن تقول : إِنَّ هُوَ تَزَوَّجَ بَعْدِي بِثَانِيَةٍ وَجَمَعَهَا إِلَيَّ فَلَسَوْفَ أَتَزَوَّجُ بِآخَرٍ وَاجْمَعْ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ ! لِأَنَّ الْقَانُونَ لَا يَأْذُنُ لَهَا فِي ذَلِكَ ، وَلَا تَأْذُنُ بِهِ فِطْرَتُهَا أَيْضاً ، لِأَنَّ بَطْنَهَا لَا يَجْمَعُ بَيْنَ وَلَدَيْنِ مِنْ رَجُلَيْنِ مِنْ دُونِ اخْتِلَاطِ الْأَنْسَابِ ، أَمَّا الرَّجُلُ فَيُمْكِنُهُ أَنْ يَقْتَرِنَ بَعْدَهُ نِسوةً فَيَحْصِلُ مِنْهُ عِدَّةُ أَوْلَادٍ مِنْ غَيْرِ وَقُوعِ التَّبَاسِ فِي أَبِيهِمْ أَوْ أُمّهَاتِهِمْ ، وَهَذَا مِنْ أَتْرَازِ مِيزَاتِ الرَّجُلِ الَّتِي يَمْتَازُ بِهَا عَلَى الْمَرْأَةِ .

فقد ثَبَتَ أَنَّ فَجُورَ الْأَزْوَاجِ يَسْتَفْزُ الزَّوْجَاتِ ، وَيُؤَدِّي إِلَى فَجُورِهِنَّ ، أَمَّا وُجُودُ الْفُجَّارِ مِنَ الرُّجَالِ ، فَأَمْرٌ لَا يُمْكِنُ إِنْكَارُهُ بِالْكُتْمَانِ ، بَلْ لَا يُمْكِنُ كُتْمَانُهُ أَيْضاً ، فَالْوَاجِبُ أَنْ نَتَدَارَكَهُ بِتَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ الَّتِي أَخَذَ الْمُسْلِمُونَ بِنِسْوَتِهِ مِنْذُ أَقَامُوا مَقَامَهُ الْفِسْقِ .

فإن قال قائل : كيف نتدارك الفسق الفاشي في البلاد بإحياء مبدأ تعدّد الزوجات ، وليس جميع الفسقة من المتزوّجين حتى تزوّجهم ثانية .

فالجواب عليه : إن الفاسق ، وبعبارة أولى : مَنْ رَأَى نَفْسَهُ عَلَى شَرَفٍ

الوقوع في الفسق إن كان عَزَباً فليتزوّج ، وإن كان متزوّجاً فليتزوّج ثانية وثالثة ورابعة حتى يحصل له الاستغناء ، فإن لم يحصل بالرابعة وتاق إلى خامسة ، فليطلق إحدى نسائه وليجعل الخامسة رابعة ، فإن عُدَّ هذه الفعال تلاعباً بالأهل والعيال ، قلت : إن كل ذلك أفضل من الفسق ، حنانك ! بعض الشر أهون من بعض .

وإن سألتني عن منابع المال اللازم لهذه الزيجات ، أريهم منابع المال الذي يُنفَق في سبيل الفسق ، وهو أكثر .

ثم إن الرجوع إلى ديننا في تَسَرُّ النساء وعدم اختلاطهن بالرجال يهدىء الأهواء ويخفف نَهْمَ الشهوات ، فيتفقان مع تعدد الزوجات في ممانعة الفسق ، وربما يغنيان عن تعدد الزوجات نفسه ، لكونه موضوعاً لمسيرة الفسق ومزاحمته .

والدواء الثالث ضدّ مرض الفسق تسهيل الطلاق إلى حد ما كما أشرنا إليه ، لأن الإسلام شرّع الطلاق كما شرّع النكاح ، ولكن العادة الحديثة التي حَلَّت ببلاد الإسلام ، وجعلت الطلاق من المحالات ، حتى أن الرجل المسلم لا ترضيه قريته ، فيضطر إلى مرافقتها طول الحياة ! فإذا خرج من بيته تدور عينه على نساء العالم ويتنفس الصعداء ، وربما يزني ، ويتحمل إثمه ولا يتحمل عار تطبيق امرأته ! هذه العادة انتقلت إلينا من الغرب ، وقد رأى المغرمون منا بتقليد أهلهم أنهم لا يملكون طلاق زوجاتهم ، وسمعنا منهم اعتراضاً كثيراً على الطلاق في الإسلام ، فحرّمناه علينا ! في حين أن أهل أوروبا وأمريكا بدأوا يسعون في تسهيله على أنفسهم ، فأخذوا منا التوسعة ، وأخذنا منهم التضييق ، فلو أن من سئم من قريته حتى احتاج إلى تجديدها بالسفاح استفاد بما بيده من استبدال زوج مكان زوج لوجد في الإسلام منجاة من الوقوع في المناهي ، بل ومن اقتحام غائلة تعدد الزوجات ، وربما وجد سعادة في زواجه الثاني ووجدت زوجته القديمة التي هي جديدة لمن يتزوجها بعده سعادةً عنده .

وما يُعِينُ على التعفُّفِ عدمُ تصعيبِ النكاحِ بتحديدِ سنِّ الزَّواجِ وإرجاءِ النكاحِ إلى ما بعدِ بلوغِ الجنسينِ بِبَضْعِ سنينَ ، وَمَنْ يَضْمَنُ لَنَا أَنَّ الفَتَيَانَ والفتياتِ يَمُضُونَ هذه السنواتِ الطويلةَ المصادِفةَ لِرَبْعَانِ شبابِهِمْ وَعَلَيَانِ دُمَائِهِمْ فِي تَبْتُلٍ وتعَفُّفٍ ؟ وكونهم في دَوْرِ التَّعَلُّمِ الذي لا بُدَّ أَنْ يُشْغَلَهُمْ زَواجُهُمْ عنه لا يَعْدُ معذرةً لأبائِهِمْ في أَنْ يعاملوهم بالتسامحِ والتغاضي عما يَقْضُونَ به حاجاتهم الجنسية ، ولا يَعْدُ معذرةً لهم أنْفُسُهُمْ لأنَّهُمْ بالغُونَ مُكَلَّفُونَ ، ولا يُؤْذَنُ لِأَحَدٍ في الفِسْقِ بِحُجَّةٍ أَنَّهُ في دَوْرِ التَّعَلُّمِ لا يُمْكِنُ الزَّواجُ ، وقانونُ الإسلامِ يفرضُ الزَّواجَ على كُلِّ مَنْ يخافُ على نَفْسِهِ الوقوعَ في الفِسْقِ ، ولا يبيحُ الوقوعَ فيه لِأَحَدٍ ولو في سَبِيلِ التَّعَلُّمِ ، وإِنَّمَا وَاجِبُ المُسلمينَ أَنْ يَتَدَبَّرُوا لِيَكْتَشِفُوا طَرِيقَ تَأْلِيفِ التَّعَلُّمِ مع الزَّواجِ لِلْمُحَافَظَةِ على عِفَّةِ المُتَعَلِّمينَ ، وَالْفِطْرَةُ لا يَجُوزُ أَنْ تُجْعَلَ دَوْرَ غَلَوَاءِ الشَّبابِ يَمْضِي بِالْعَطَالَةِ وَالْعُقْمِ ، ولا بِالإِنْتاجِ في طَرِيقٍ غيرِ مُستقيمٍ يَنْتَهِي إلى العُقْمِ أَيْضاً ، لَكِنَّا رَأَيْنَا أَنَّ الغَرِيبِينَ لا يَتَزَوَّجُونَ في عُتُقُونِ شَبَابِهِمْ ، فَقُلْدْنَاهُمْ ، وما فَكَّرْنَا في أَنَّهُمْ لا يَبالُونَ بما إِذا كانَ شَبَابُهُمْ يَقْضُونَ حاجاتهم الجنسية في طُرُقٍ لا تَقْبَلُهَا آدابُ الإسلامِ الاجتماعية من مَخالطةِ الفَتَيَاتِ ومُخَاصَرَتَيْنِ ومُبادلتِهِنَّ المحبة ، وَرَبَّما فَكَّرْنَا في ذَلِكَ وَقُلْدْنَاهُمْ في عَدَمِ المُبالاةِ .

الحاصل ؛ إن الإسلام يُسَرُّ ، يريد بنا اليُسْرَ في المعاملات ، وَخِطَّتُهُ في معاملة الأزواجِ مع الزَّوْجَاتِ تدورُ على إِمساكٍ بِمَعْرُوفٍ أو تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ ، كما عُبِّرَ به القرآنُ ، وَالنكاحُ وَإِنْ كَانَ مِيثاقاً غليظاً كما عُبِّرَ به القرآنُ أَيْضاً ، وكان الطلاقُ أَبْغَضُ الحلالِ إلى الله ، وكان الله لا يَجِبُ الذَّوَاقِينَ والذَّوَاقَاتِ ، كما وردا في الحديثِ النبوي ؛ فليس شيء من هذا وذاك وذلك يَلْصُقُ أَحَدَ الزَّوْجَيْنِ بِالْآخَرِ بحيث لا يَتِمَكَّنَانِ من الافتراقِ كما في أنكحةِ سائرِ المِلَلِ ، فيتولَّى الرجلُ الطلاقَ ، وتتولاه المرأةُ بِاشتراطِهِ عند عقدِ الزَّواجِ ، وبالمخالعة ، وقد يتولاه الحَكَمَانِ المَبْعُوثَانِ من أهْلِيهِمَا لِإِصْلاحِ ذاتِ البينِ ، لأنَّ دوامَ رابطةِ النكاحِ بينِ الزَّوْجَيْنِ مَهْمَا كانَ مَطْلُوباً في الإسلامِ ومُحِبَّوباً فهو مشروطٌ بِعَدَمِ مَخافَتِهِمَا أَنْ لا يَقِيما حَدودَ الله وهذا

تعبير القرآن أيضاً ، وقد فسروها بحقوق الزوجية التي لهنّ منها مثل الذي عليهن بالمعروف مع ما للرجال عليهن من درجة ، وفي التعبير ما لا يخفى من إعظام تلك الحقوق . ثم لا يخفى أن المحافظة على العفة من الطرفين تدخل فيما هو المطلوب حصوله بينهما من إقامة حدود الله دخولاً أولاً ، فعند غفلة التعدي من أحدهما لحدود الله يتعين الطلاق بلطفٍ ومعروفٍ وإحسانٍ ، ولا يُعقل لهما قضاء العمر في عَدَمِ التراضي . ويُعدُّ تعدياً لحدود الله من جانب المرأة أن تمنع زوجها من العمل بمبدأ تعدد الزوجات الذي هو من حقوق الزوج عند حاجته إليه .

وهذه الحرية من النكاح والطلاق ، والسهولة التي يلاقيها الزوجان بصددهما ، جعلت الإسلام في التوسط بين ضيق مبدأ المسيحية فيهما ، وفوضى الاشتراكية ، فهو لا يتعد في مبادئه عن الاشتراك ، فيضمن للإنسانية الفوائد التي تنتظرها منه ، ويغني عن إفراطاته ، وفي زكاة الإسلام التي ترى حقاً للفقراء في أموال الأغنياء أدلّ شاهد على هذا ، كما أن سهولة النكاح والطلاق في الإسلام التي تتضمن سهولة استبدال زوج مكان زوج هي من هذا القبيل ، أي : مما يقرب به الإسلام من الاشتراك ، وبهذا التسهيل يكون الإسلام قد اعترف بحاجة الإنسان إلى التجديد الذي أطلقه الفسقة والاشتراكيون ، والإسلام يراعي التجديد مع التحديد ، ويربطه بالنظام ، وكان الأنصار أهل المدينة ينصرون المهاجرين من أصحاب النبي ﷺ ورضي عنهم أجمعين ، إلى حد أن من عنده امرأتان كان ينزل عن إحداها ويزوجها واحداً منهم ، وهذا مما يستشهد به على سهولة النكاح والطلاق في الإسلام ، وعلى أن المقصود منها قد يكون الإيثار والتضحية لا الاستتار .

نرجع إلى تعدد الزوجات ومقارنته مع التعدد من دون زواج - الذي يفضلهُ المتشبعون بعقلية تقليد الأجانب عن الإسلام على التعدد المشروع - ويقولون

النساء قولهم بالتفضيل . وقد قلت عن هذه المقارنة في كتابي المار الذكر : « إن في التعدد الغير المشروع ضرر الزوج بفقد عفته ، وضرر المرأة التي اقترن بها بفقد عفتها ، وضرر الزوجة من حيث كونها زوجة الرجل المفقود العفة ، وضررها أيضاً من حيث احتمال أن تفقد عفتها انتقاماً من زوجها ، وضرر الزوج من هذه الجهة ، وضرر زوج المرأة التي اقترن بها الزوج إن كانت متزوجة ، وضرر الزوجة التي تقترن بزوجها الزوجة المنتمة إن كان متزوجاً ، وضرر الأولاد المضاعة بين المقتربين وقريناتهم وبين المقترنات وقرنانهن ، وضرر كل من الطائفتين من الأمراض المعدية في هذه الاقترانات ، وضرر زوجات المقتربين وأزواج المقترنات من انتقال العدوى إليهن وإليهم . فهذه عشر مضار قد كتبت الثلاث الأخيرة منها في إفساد حال الدنيا الحاضر . ومن حكمة الله تعالى أنه يسلب مفضلات الأمراض على الاقترانات الغير المشروعة . وفي تعدد الزوجات مقابل هذه العشر ضرر واحد خاص بالزوجة ، وهو كون زوجها تزوج بامرأة أخرى . وهو ضرر إن اخل باستئثارها بزوجها فلم يحل بشرفها ، لأن زوجها استعمل حقه الذي أعطاه قانون الإسلام كما لو ولد بعد الولد شقيقه فأخل باستئثاره بأبويه .

ولست بالذي لا أقدر قدر الحب والقلب وما بينهما من صلة تحمي وتحمي ، ولا قدر أصحاب القلوب من الأزواج الذين تمنعهم محبة زوجاتهم ، أو على الأقل رحمتهم ، عن أن يتزوجوا عليهن ولو كانوا في حاجة إليه ، وقد قال رسول الله ﷺ : « مَنْ رَقَّ لَأُمِّي رَقَّ اللهُ لَهُ » .

ولما أنا لا أفهم للكتاب المعارضين الظاهرين بمظهر الرعاية والاهتمام بقلب الزوجة الأولى وحُبها ، تساعدهم مع الخيانة الموجهة إليها وإلى محبتها من جانب الزوج الذي يجادل امرأة غيرها بدلاً من أن يتزوجها ، مع أن الاعتداء على القلب في الصنيع الأول أشد وأبشع ، لكونه إشراكاً في الحب يتضمن سقوط المشرِك والشريكة .

ثم إن تعدد الزوجات مهما ثقلَ على الزوجة الأولى وأضرَّ بها ففيه منفعة لأخرى من جنسها ، لأنه صيرها زوجةً مثلها بدلاً من أن تصبح خليةً ساقطةً ، وإن الإنسانية إن نظرت إلى تعدد الزوجات وما يقابله من التعدد بشكل غير مشروع ، وهو ما لا بُدَّ أن يقوم مقام التعدد المشروع ويملاً فراغه في الحاجة البشرية ، إن نظرت إلى هذا وذاك بعين الإنصاف وجدت تعدد الزوجات أوفق لمصلحة النساء العامة وصالحهن العام ، والمعارضون ينظرون إلى مصلحة بعضٍ منهن دون بعض .

وفضلاً عن ذلك ، فإن تعدد الزوجات إن أحلَّ بمساواة الجنسين ، فالرجل لا يساوي المرأة ، يُنادي بعدم المساواة كون فطرة المرأة تأتي أن تجازي تعدد الزوجات بتعدد الأزواج كما ذكرنا ، ثم إنها لا تستطيع أن تلبّد في عامٍ واحدٍ إلا مرةً واحدةً مع أن قوة الإنتاج في الرجل تتجدّد كلّ يوم ولا يشغلها شغل ، والمرأة تستغني عن الرجل أيام حيضها ونحاضها ونفاسها ، وتهرم قبل الرجل ، فتقطع عن الولادة ، ويعتريها القدم قبل الهرم ، فتكون بكراً وثيباً ووالدةً ، فتفقد من طراوتها كلّما مرَّ عليها دورٌ من هذه الأدوار ، فلو وقفتنا الرجل والمرأة في حدّ المساواة إنصافاً للمرأة لَكُنَّا ظلمنا الرجل الفائق في فطرته ، ألا يرى أن المولود يُفضّل كونه ذكراً حتّى عند أمه ، وهل لا يدلُّ هذا على اعتراف من جانب المرأة بفضل الرجل ؟

ولمّا شاعت دعوى مساواة المرأة للرجل في العصر الحديث تحت حماية بعض الرجال ومحاماتهم عنهنّ حاجة في أنفسهم ، يحاولون قضاءها بالتقرب إليهنّ ، فلو فازت دعوى المساواة فازت وهي مساواة ممنوحة غير حقيقية .

والنساء في عصرنا يطاولن الرجال برفع كعوب أحذيتهم مطاوله مبيّنة على التكلف وتغيير الخلقة ، لكنهنّ على خطر الكثرة عند السباق معهم بتلك الأحذية .

ولأجل ما ذكرناه من كمال قدرة الإنتاج في الرجال ، حتى أن الرجل الواحد لا يعد له جماعة النساء الغفيرة ، كان طريق إكثار التناسل في الأمم تزويج رجل واحد عدة نساء ، أعني : العمل بتعدد الزوجات ، ذلك المبدأ الإسلامي الذي ستحتاج حكومات الغرب إلى تطبيقه في بلادهم ، لا سيما بعد تطبيق واحدة منهن ؛ أما كثرة النسل ، فلا شك في كونها من أجل ما ترغب فيه الأمم لاكتساب القوة ، ولا يرناب في نفقها أحد إلا كاتب كتب يوماً فيما تعود كتابته في الأهرام بنى المصريين عن إكثار الأولاد ، في حين أن حكومات الغرب تتنافس في إكثار عدد شعبها ، وتكافئ الكثيرين وتجزل لهم أنواع العطاء ، كما أن نبينا ﷺ قال لنا قبل ذلك : « تَنَاجُحُوا ! تَكْثُرُوا ! فَإِنِّي أَبَاهِي بِكُمْ الْاُمَمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وإني عجبْتُ من شذوذ هذا الكاتب ، الذي نحمد الله على أنه لم يتدخل في نقاش مسألة تعدد الزوجات ، فلو تدخل لعد كونه سبباً لكثرة النسل من مضارّه .

وأعجبُ منه ما سبق لكاتب كبير في ترقية^(١) عند مناظرتي إياه في مبدأ تعدد الزوجات من أنه لم يعترف بنفعه لكثرة النفوس ، وقد ذكرته هنا ليكون أمثودجاً لمكابرة المعارضين في هذه المسألة ، وشاهداً على وُهن مواضع أقدامهم لحجّ أنهم ربما يحتاجون إلى تعزيز دعاويهم بما يخالف البداهة .

ثم إن الرجال هم الذين يتحملون أفسى وظائف الحياة ، ومشاركة النساء إياهم في بعضها في العصر الأخير بعيد عن المساواة كل البعد ، يكفيك أن أعباء الحروب الأساسية على كواهلهم ، الدماء الجارية فيها كالأنهار دماؤهم ، فالأمم إذن في حاجة إلى أن تقوم نساؤهم بتضحية تتكافأ بعض الشيء مع تضحيات الرجال ، وتلافي ما تحدث فيهم التضحيات من النقص ، فينبغي لمن أن يجارِبَن أنفسهم ويرضنها لاحتمال تعدد الزوجات ، فيعوضن بهذا الحمل الثقيل ما يضحيه الرجال بأرواحهم في ميادين الحروب . وما نقلنا عن الكاتب المعارض من

(١) المرحوم جناب شهاب الدين بك .

قوله : « على أنه إن قامت حرب ومات فيها عددٌ كبيرٌ من الرجال أمكننا حينئذٍ أن نرجع إلى ديننا وإلى تطبيقه بحسب اختلاف الزمان » اعترافٌ منه بمبدل تعدد الزوجات ، وبكونه حقاً للرجال عليهنَّ حيال الحروب ، صدر منه بغير شعور به ومن غير شعور بأن التسوية فيه لا يتفق مع المصلحة المعترف بها ، لأنَّ تعدُّد الزوجات الذي سوف يطبَّق بعد وقوع حرب وبعد موت عددٍ كبير من الرجال فيها ، إنما يأتي بشمراته في عشرات السنين بعد انتهاء تلك الحرب ، والحال أنَّ الأمة المتيقظة من واجبها أن تظلَّ عقب انتهائها من حرب قادرة على حرب أخرى ، فيلزمها أن تكون دائماً على استعداد ولا تنتظر أوان الحاجة . وقد كنتُ كتبتُ في تركية قبل خمس وعشرين سنة أنَّ تعدُّد الزوجات الذي تحمِلُ النساءُ أثقاله مقابلَ لحروب الرجال . ثم رأيتُ حديثاً نبوياً ، وكتبته في كتابي المار الذكر ، وهو : « إنَّ الله كتَبَ الغيرةَ على النساءِ ، والجهادَ على الرجالِ ؛ فمَنْ صَبَرَ مِنْهُنَّ إيماناً واحتساباً كان له مثلُ أجرِ شهيدٍ » أخرجه الطبراني عن ابن مسعود بإسناد لا بأس به « الجامع الصغير » ؛ ففي الحديث إشارةٌ إلى تعدُّد الزوجات ، والمراد من كتَبَ الغيرةَ على النساءِ كتَبَ ما يُثيرُ الغيرةَ ، وهو تعدُّد الزوجات ، وإنما فسرنا بهذا لأنَّ الغيرةَ توجدُ في الرجال أيضاً ، لكنهم لم يكلّفوا بها - أي : بتحمل ما يثيرها - كما كُلفَتِ النساءُ .

ولختم المقال ، فقد طال على القارىء ، وخلاصته : إنَّ في تعدُّد الزوجات جُنةً من البقاء ، وقوةً للأمةِ العاملة به .

السفور والاحتجاب

لا خلاف في أن الشرق مهد العلوم والمدنيات ، وسبب ذلك يرجع إلى كونه موطن الأنبياء ومهبط الوحي الإلهي ، حتى أن مدينة اليونان التي هي أقدم مدينة في أوربة ، والتي استنار منها الغرب قبل ما استنار من علوم الإسلام ومدنيته المنصبة إلى إسبانية بأيدي العرب الفاتحين ، مقتبسة من اتصال اليونانيين بسكان سواحل آسية المحاذية لسواحل اليونان بمناسبة التجارة وغيرها ، فضلاً عن كون أصل اليونانيين من المهاجرين الشرقيين .

ولا خلاف أيضاً في أن السفور حالة بداوة وبداية في الإنسان ، والاحتجاب طراً عليه بعد تكامله بوازع ديني أو خلقي يزعه عن الفوضى في المناسبات الجنسية الطبيعية ، ويسد ذرائعها ، ويكون حاجزاً بين الذكور والإناث . وقد خص الاحتجاب بالمرأة دون الرجل لاشتغاله في خارج البيت ، ولأن موقفه في المناسبات الجنسية موقف الطالب ، وموقف المرأة موقف المطلوب ، فيكون منه الطلب والإيجاب ، ومنها القبول أو الإباء ، واحتجابها وسام إبانها وهي متحلية به أمام الرجل كيلا تحتاج إلى الإباء والرفض باللسان أو اليد ، ففيه صونها عن أن تكون عرضة للرجال ، فإذا تصدى لها الرجل ، وراودها بلحاظه ، وأرادت هي قبول مرادته تسفر له ، فهو ينم عن قبولها الطلب ، وسفورها لرجل معين من غير سبق طلب منه شعار قبول متقدم على الطلب وإغراء له بالطلب ، وسفورها العام شعار القبول والإغراء العامين .

ثم إن الاحتجاب كما يكون تقييداً للفوضى في المناسبات الجنسية الطبيعية ،
ويضاد الطبيعة من هذه الحيثية ؛ فهو يتناسب مع الغيرة التي جُبلَ عليها
الإنسان ، ويوافق الطبيعة من ناحيته الأخرى ، إلا أن الغيرة غريزة تستمد قوتها
من الروح ، والتحرُّر عن القيود في المناسبة الجنسية غريزة تستمد قوتها من الشهوة
الجسمانية ، فهذه تُغري بالسفور ، وتلك تَبْعُثُ على الاحتجاب ، وبين هاتين
الغريزتين تَجَافُ وتَحَارِبُ مجريان في داخل الإنسان ؛ فالمدينة الغربية انحازت إلى
الطبيعة الأولى ، وقرَّرتْ أن لا تحرم المنتسبين إليها التمتع الجاذب الحلو في سُفور
النساء واختلاط الجنسين في الأندية ومجالس الأُنس والسهر ، وضحت بالطبيعة
الثانية في سبيل ذلك التمتع ، فالرجل الغربي يخالطُ نساء الناس ، ويقبلُ أيديهن ،
ويجالسهن سافرات ونصف عاريات ، ويخاصرهن ، مقابل التنازل عن غيْرته على
زوجته وأخته وبنته ، فيخالطن غيرةً ويخالسهن ويخاصرهن ، ويرى أن عدد
ضحاياهِ قليلٌ بالنسبة إلى ما يربحُ ، وربما لا يوجد من يضحي به فيخلصُ له
الرَّيْحُ . والحفلات الراقصة التي هي من لوازم المدينة الاجتماعية في الغرب ليست
إلا تأييداً علنياً للمعاشرة المختلطة ، وتقريباً لأحد الجنسين إلى الآخر في الاقتران
والالتصاق وقضاء على الغيرة بين ظهرائي مَنْ يُتَوَقَّع منهم التحمُّس بها ، فكأن تلك
الحفلات أفرَاحُ القِرانِ العام .

والقضاء على الغيرة بَلَغَ عند مدينة الغرب إلى أن اعتبرتْها من النقائص ،
بالرَّغم من أن الإنسان يشعُرُ بِفِطْرَتِهِ أنها فضيلةٌ ، وتواضَعَ كتابُها وشعراؤها على
تغيير هذه الفِطْرَةِ ، من ذلك ما قاله الشاعر الفرنسي المشهور (هوغو) فيما كتبه إلى
مؤتمر الصلح المنعقد في (لوغانو) سنة ١٨٧٢ م : « ... نرى فكرة الاستيلاء
انقلبت إلى فكرة الاختراع ، وسيقوم إخاء الأمم السميع مقام إخاء الملوك
المقترس ، وسينجو وطننا من الحدود ، وميزانيتنا من الطفيلية ، وسفرنا من
العرقلة ، وتربيتنا من العنف الحيواني ، وتجارَتنا من الجُمرك ، وشبيبتنا من

المُسْكِر ، وشجاعتنا من المقاتلة ، وعدالتنا من البُسَنَّة ، وحياتنا من السَّنان ،
ولساننا من العِقال ، وضميرنا من التحكم ، والحقيقة من البطلان ، والمعبود من
الراهب ، والسَّماء من جهنم ، والعشق من الغَيْظ والغَرْض ، وقد أراد بخلاص
العشق من الغَيْظ والغَرْض أن تقوم سعة الأريحية مقام ضيق الغيرة .

ومع هذا فلا يزال أصحاب الطبع السليم في الغرب يحسُّون مرارة هذه
المعاشرة المختلطة ، وينطقون بالحقِّ الناعي على حصراتهم ؛ فقد نَقَلَ الكاتبُ
التركي الأكبر المرحوم جناب شهاب الدين بك في كتابه المسمى « أوراق الأيام »
عن مدام دولارو مارديروس ، التي وصَّفها الكاتبُ بأنها كبرى شاعرات فرنسا ،
قولها له : « قولوا لنسائكم ليقدِّرن قَدْرَ سعادتهنَّ ، وما يضطرُّرن إليه من الحياة
المحجبة التي تصونهنَّ عن اضطرابات كثيرة . فلو عَلِمْنَ عدَدَ مُحبَّاتي اللاتي بَكَيْنَ
على مُنكبتي شابهات ؟! إنَّ في أذني ودائع من شكايات النساء تفتت الأكباد ،
نعم ! إن دخول حفلة راقصة فخمة يُرى كتصريحٍ جدير بالطلب ، ولكن الغيرة
التي تنهش قلب زوجة تدخل هذه الحفلات مع زوجها الذي تحبه ، أشبه بأفعى
رَقطاء ، يا لها من أفعى ! فهل أنتم تُعرفون ذلك ؟ فالحفلات الرَّاقيصةُ ، ومسارح
التمثيل ، وجميع أندية التلاقي ؛ ما هي إلا دُور تعذيبٍ لِسُنَّت أوفيس ، وما هي
إلا جهنمُ أمام رجل يهَمُّ أمر زوجته ، أو امرأة تحب زوجها فهل أنتم فاهمون ؟!
أفيدوه إذا لزوجاتكم وإخوانكم » .

ومن الدُّليل على كَوْنِ السُّفُورين يتكلَّفون إسكات صوت الغيرة في قلوبهم
وامانتها مقابل ما يتمتعون به من الاختلاط بنساء غير نسائهم ، أن مقلدَّتهم من
المسلمين لا يسمحون بالدخول على نسائهم إلا لَمَنْ يَسْمَحُ لهم بالدخول على
نسائِهِ ، فلو قَصَّدُوا بالسُّفُور الذي يدعون له إلى تحرير المرأة من أسر الاحتجاب
كما يدعون له لما حافظوا على شرط المعارضة في سُفور نسائهم عند أي رجل من
معارفهم .

ومن الدليل الجلي أيضاً على أن ما يرمى إليه سفور النساء العُصري ليس بشيء عادي يتفق مع الصلاح وينبغي على طوية حسنة من الذين يدعون له ، ولا يزيد على مساواتهن بالرجال في أنهن خُلِقْنَ حرار كما أنهم خُلِقُوا أحراراً ، من الدليل على ذلك أن سفورهن لا يقف عند حد سفور الرجال ، فيكشفن عن أذرعهن إلى آباطهن ، وعن صدورهن وظهورهن وسيقانهن ، في حين أن الرجال لا يرون أي لزوم للكشف عن هذه الأعضاء ، فالسفور خرج اليوم عن معناه في أصل اللغة ، وهو الكشف عن الوجه ، وتحول إلى ما نراه من نصف التعري أو ثلثيه ! والاختلاط في هذه الحالة بالرجال الأجانب ! فنحن لا نجيزه لبلاذيهتم أهلها بعبث نسائهم ، ونراه رائداً للفسق والفساد ، ونتعجب من كتاب اتخذوا الدعاية للسفور مبدءاً لهم ، ثم نراهم الفئنة بعد الفئنة يشكون تهافت النساء على أنواع التبذل والاستهتار في المصايف وعلى شواطئ البحر ، واندفاع الفتيان والفتيات وراء الشهوة الجامعة ، لا سيما في (استانلي باي) التي وصفها أحد شعراء مصر الكبار بقوله من قصيدة :

تَرَى الْعَيْنُ فَوْقَ الرُّمْلِ سِرْباً مِنَ الْمَهْيِ	مُبْعَثَةٌ فِي الرُّمْلِ بَعَثَةُ الزُّهْرِ
تَجِلُّ عَلَى الْجَنَبَيْنِ فَوْقَ أَدِيمِهِ	تُمَدَّدَةُ السَّاقَيْنِ مَنِيَّةُ الْخَضِرِ
وَتُبْصِرُ فَوْقَ الْبَحْرِ أُخْرَى تَجْمَعَتْ	تَجْمَعُ سِرْبُ الطَّيْرِ يَخْرُجُ مِنْ وَكْرِ
وَبَيْنَهُمَا سِرْبُ يَرُوحُ وَيَغْتَدِي	عَلَى مِثْلِ حَالِ الْمَوْجِ فِي الْمَدِّ وَالْجَزْرِ
عُرَاةٌ نَوَاجِي الْجِسْمِ إِلَّا بَقِيَّةُ	تَلُوحُ هِيَ الْأُخْرَى وَدَعَكَ مِنَ السَّرِّ
وَتَحْلِسُ فِي النَّادِي فَتَاةٌ عَلَى فَتَى	عَلَى الْوَرْدِ بَيْنَ الثَّقْلِ وَالْكَاسِ وَالْخَمْرِ
هُنَالِكَ كُلُّ أُتْنَيْنِ ضَمَّهُمَا هَوَى	وَكُلُّ مُبِيجِ الْعِرْضِ فِي الْمَعْرِضِ الْحَرِّ
فَبِی الْبَحْرِ سَوَاتٍ وَفِي الْبَرِّ مِثْلَهَا	فَيَا ضَيْعَةَ الْأَخْلَاقِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ

وقال آخر :

هَلْ رَأَيْتَ الْجُمُوعَ مُحْتَشِدَاتٍ	فَوْقَ شَطِّ الْخِضْمِ أَوْ سَابِحَاتٍ
وَرَأَيْتَ الْحِسَانَ يَمْشِينَ زَهْوَ	مُقْبِلَاتٍ يَتَهَنُّنَّ أَوْ مُذْبِرَاتٍ

وَمِنَ الْوَالِدِينَ سُوءُ أَنَاةٍ
أَوْ طَبَاعٍ فِي نَفْسِهِ فَاسِدَاتٍ
لَا يُبَالِي بِمَنْهَجِ الْأَخَوَاتِ
بَالِيَاتِ الْأُمُورِ وَالْعَادَاتِ
وَتَرَكْنَ الْحَيَاءَ فِي الْحَرَكَاتِ
مُبْدِيَاتِ الدَّلَالِ مُسْتَهْزِاتِ
لَسْنَ بِالْعُرْفِ وَالنَّهْيِ خَافِلَاتٍ
مَعَ رِجَالٍ وَ فِتْيَةٍ وَلِذَاتِ
جَنْبِ رَهْطِ الشَّبَابِ مُنْبِطِحَاتِ
وَهَزُّ الْخُصُورِ وَالضَّحِكَاتِ
وَهَارِشْنَ فِتْيَةً مَرَاتٍ
قَافِزَاتٍ فِي خَفَةِ صَاحِبَاتِ
وَلَهَا تَذَمُّ نَفْسُ ذِي النُّخَوَاتِ
وَعَلَيْهَا مِنْ أَشْنَعِ الْوَصَمَاتِ
مَا تَرَاهُ مِنْهُنَّ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ

ضَلَلْتَهُنَّ قُدُوةَ الْوَالِدَاتِ
وَمِنَ الزَّوْجِ غَضُّ طَرْفٍ لَضَعْفٍ
وَأَنْغِمَاسُ الشَّقِيقِ فِي شَهَوَاتِ
فَاطْرَحْنَ الْجِسْمَةَ يَحْسِبْنَهَا مِنْ
وَكَشَفْنَ الْجُسُومَ إِلَّا قَلِيلًا
يَتَخَطَّرْنَ جِيئةً وَذَهَابًا
وَيُنَالِينَ فِي مِرَاحٍ وَلَهْوٍ
تَلْتَقِيهِنَّ نَارَةٌ رَاقِصَاتِ
وَتَرَاهُنَّ مَرَّةً فَوْقَ زَمَلٍ
وَيَغَارِلْنَ بِاللُّخَاطِ شَبَابًا
مَرَّةً يَهْرِشْنَ دُونَ حَيَاءٍ
يَتَخَبَّطْنَ مَوْجَةً إِثْرَ أُخْرَى
حَالَةً تَجْرَحُ الْفَضِيلَةَ حَقًّا
شَطُّ اسْتَانِلِي أَنْتَ عَارٌ لِيَصْرَ
أَيُّهَا الْبَحْرُ طَهَّرِ الْقَوْمَ وَاغْبِلْ

وقال آخر :

مَاذَا رَأَيْتَ عَلَى سَتَانِلِي ؟
تَ ضَحَى عَلَى الرُّمْلِ الْمُطْلُ
يُوحِي إِلَيْنَا بِالتَّمَلِّي
بِ تَسِيرٍ فِي صَلَفٍ وَذَلِ
ءِ وَكُلُّ نَازِلَةٍ لِظِلِّ
عِ تَطُوفُ فِي ضَنْ وَتَبَلِ
ءِ وَتِلْكَ تَبْخُلُ أَيُّ بُخْلِ
حَتَّى كُذْتُ أَجْلِي مِنْ عَمَلِي

هَـا قَدْ تَرَحَّلْنَا فَقُلْ لِي
مَاذَا رَأَيْتَ وَقَدْ وَقَفَ
مِنْ كُلِّ جَنَمٍ ضَاحِكٍ
مِنْ كُلِّ غَازِيَةِ الْقُلُوبِ
أَوْ كُلِّ سَاكِنَةِ الْعَرَا
زَمَرٍ مِنَ الْحُسْنِ الرَّفِيعِ
هَذِي تُحْيِي مَنْ تَشَا
ضَاقَتْ بِهِنَّ الْأَرْضُ حَتَّى

دِقْ فِي الْمَشَارِفِ وَالْمَوَئِي
 تُمْرُ لَا تَلْوِي بِمِثْلِي
 تَجَلُّ عَنْ وَصْفٍ وَقَوْلٍ
 تَكَادُ تَقْتُلُ أَيُّ قَتْلٍ
 تَكَادُ تَخْطِفُ كُلَّ عَقْلِ
 لَذْنِيَا فَقِفْ يَوْمًا وَصَلْ
 مِنْ عَرَائِشِ الْبَحْرِ الْأَجَلْ
 نِيَّةٌ أَوْ مَكَانٍ أَوْ مَحَلْ
 حِيٌّ عَلَى ثَرَى الشُّطِّ الْمَدِيدِ
 تَبْتَغِي بِبَالِغٍ جُهْدِ الْمَقِيلِ
 خَلَّ الْوَقَارَ الْيَوْمَ خَلَّ
 وَانْزِعْ هُنَالِكَ كُلَّ غِلْ
 وَدَعْ الشَّقَاءَ لِمَا يُسْلِي
 نِي قَدْ بَرَزَنْ بِأَلْفِ شَكْلِ
 مِ الْبَيْضِ إِلَّا فِي الْأَقْلِ
 مَفْ يَغِيبُ فِي مَاءٍ وَرَمَلٍ
 مِ يَجْرُنْ مِنْ جِلْ لِحْلِ
 لِي بِبَسْمَةٍ أَوْ بَعْضِ دَلْ
 عَاهُنْ فِي سَفَرٍ وَحَلْ
 لِي وَذَاكَ يَمْنَى بِالتَّخْلِ
 بِهِمْ عَلَى خَطَا وَجْهَلِ
 قَدْ شَرَّدَ الْأَحْلَامَ وَنَبِي
 لِي ذَادَ عَنْ نَهْلٍ وَعَلْ
 رَ ضَرَاوَةَ الْأَسَادِ قُلْ لِي !

وَأَخَذْتُ مِنْ عَجَبِي أَحَدُ
 فَإِذَا الطُّبَّاءُ الْإِنْسَاتُ
 وَإِذَا الْخُصُورُ الضَّامِرَاتُ
 وَإِذَا الْجُفُونَ النَّاعِمَاتُ
 وَإِذَا الْوُجُوهُ الْمَشْرِقَاتُ
 يَا قَلْبُ هَذِي كَعْبَةُ الذِّ
 لِلْعَارِيَّاتِ كَأَنَّهُنَّ—
 مِنْ أَيِّ وَادٍ فِي الْكِنَا
 طَلَعَ الْجَمَالَ الْعَبْقَرِيَّ
 مَهْمَا أَقْلُ فِيهِ فَلَسَ
 يَا قَلْبُ وَالْحُسْنُ اسْتَوَى
 وَابْسِمَ كَمَا بَسَمَ الْهَوَى
 وَأَنْسَ الْحَيَاةَ وَمَا بِهَا
 وَأَنْعَمَ أَمَامَكَ بِالْغَوَا
 وَلَيْسَنَ أَمْوَاجُ الْخِضَمِ
 وَسَبَّحَنَ يَا لِلْحُسْنِ كَيْدِ
 وَمُتَاجِرَاتِ بِالْغَرَا
 يَغُوبِينَ آفَافَ الرُّجَا
 فَإِذَا الْقُلُوبُ تَظَلُّ تَرُ
 هَذَا يَمْنَى بِالْوَصَا
 وَالْقَوْمُ بِمَا قَدْ أَصَا
 وَيْلِي عَلَى الظُّبْيِ الَّذِي
 فِي سَكْرَةِ الْحُلَمِ الْجَمِيدِ
 مَنْ عَلَّمَ الظُّبْيَ الْغَرِيدِ

ويقول عنها كاتب من التواب :

« هذا فتى وهذه فتاة ، إي والله ، هما فتى وفتاة من أبناء هذه الحضارة التي نكابد آثارها . كلاهما يتلَو في المصيف وفي ضُخوة النهار خارجاً مِنْ ماواه (الكابين) عُرْيَان ، حاسِر الرأس ، بادي السُّرَاتَيْن ، يقطع ما بين ماواه والشاطئ على هذه الصُّورة ، ثم لا يبتدِرُ الماء لِيَسْتَر به سَوَاتِهِ ، بل يهيم على طول الشاطئ أو على امتداد الطريق كما كَانَ يفعل الإنسان الأول حين ينطلق من ماواه يطلب قوته في صَيْدٍ يباغته ، فكلاهما طالبٌ صَيِّدٌ ، غير أن الشابك مختلفات .

وهذه لَمَّة من بني آدم وبنات حواء . إي والله ! هي لَمَّة من بني آدم الواغلين في صميم المذنبية وبنات حواء الواغلات في تَرْفِ العصر ، وزخرفة تَسْتَشْرِفها على بُعد ، فتخطو إليها لترى ما خُفِيَ من أمرها ، فإذا انتهت إليها رَأَتْ العُزَاء متلاصقين يرقصون رَقْصَ المدينة السَّيْجَةِ ، ما احتملتِ النَّفْسُ مَضْضَهُ وهو في الغُرف والأهواء ، فكيف احتماله وهو في الفُضَاء والعُزَاء ؟

وقد يُرى في جانب آخر أشباه قَوْمٍ آخرين قد يكونون مَثْنَى ، وقد يكونون ثلاث ، وقد يكونون أكثر من ذلك ، وهم أمام المصوِّر في أوضاع ليس وراء تَبْذُلها غاية يُسْتَبْذِل .

وتقول إحدى الكاتبات : « لقد رمانا القَدْرُ وسوء التريّة ببَعْضِ المجازفات المعتوهات اللائي قلْدَن الراقصات في الاستحمام على الشواطىء ، ثم تبعهنَّ غيرهنَّ ، حتى أصبح الأمر شايعاً بين كل الطبقات إلا مَنْ غَصِمَ رَبُّكَ ، تمشي المرأة المستهترّة على الشاطئ كَمَنْ يتخبّطه الشيطان من المَسِّ ، تجمّح في البُغَايَةِ ، لا يَكْثِرُ شَكِيمَتُهَا قانونٌ ولا يَكْنِجُ جَاحِهَا شيءٌ ، تروح وتغْدو بملابس الاستحمام الضيّقة المهلهلة ، وتَسْتَفِي وتتلوى وتتايل وتختال ، ثم تنظر إلى الجالسين ، وتطالع على وجوههم ، ماذا فعلت كل هذه الوقفات في نفوسهم ؟ وهل راقهم منظرها أو أنهم عليها ناغمون ؟! » .

«... كانت المرأة بليدة فاترة هامدة ، لا تشعرُ بشيء ، ولا تحفلُ بمحاسن الحياة ومباهجها ، ترسُفُ في الأغلال ، تحي حياءَ صامتة كشيئة قائمة ، وكان أنصارها يقولون بأن كثرة الضُغطِ تسبب الانفجار ، فصحت نبوءتهم ، وها هي انطلقت على غير هدى ، واندفعت اندفاعاً فهذمت سياج الفضيلة بمحاول المدنية والجهل ، فمن حجاب ممقوت ، ومن خذر مكنون لا تراه العيون ، إلى الشارع مكشوفة حافية عارية ، وسوست لها المدنية وخدعتها ، فحسبت أن حرية المرأة هي الحرية الخارجة على الحياء ، الهادمة للأداب ! وغفا الآباء والأزواج ، وغفا أولو الشأن ، وتسامحوا ، ولم يفكروا في إرهابها وتخويفها ومنعها .

« فهل جرى في ظن أحدٍ يدعو إلى السفور أن تخرج المرأة هكذا عارية من الفضائل ، عارية من الملابس ، لتواجه الشمس كما تدعي ؟ .
« فلو علموهن الدين لتطهرت نفوسهن عن الدنيا ، لو علموهن الدين لما زلت القدم ، ولكان لهن درعاً يقيهن شر الفساد .

« وهل جرى في ظن أحدٍ أن تسكت الحكومة ويسكت السادة العلماء ؟ وهل جرى في ظن أحدٍ أن تفضل إدارة المطبوعات بالغيرة على الأخلاق فتطلب منع نشر صور المستحبات وتترك المستحبات لحماً مكدماً على الشواطىء ؟ ! .

« والمرأة المستهترة تعرض جسمها على أنظار الناس تستجدي النظرات الخائنة ، تطرب لها ، وهم هناك على الشواطىء يحمل بعضهم بعضاً ، ويعبثون ولا يتورعون ، لم ينشد لنا نصيرنا قاسم أمين هذا الذي اخترعته المرأة وتفنت فيه ، ولو كان يعلم الغيب لألقاها في غيابة السجين لا تخرج منه أبداً ؛ أراد قاسم أن تتعلم المرأة وتطلب مساواتها بالرجل .

ونحن نقف هنا وقفة ، فنقول للسيدة الكاتبة : بل هذا هو الذي نشده قاسم أمين وأضرابه من أنصار السفور ، وكان كل من له عقل وخبرة بأهواء الرجال

والنساء وميولهم الغريزية يعرف أن عاقبة السفور ستكون هذه المخازي ، لأن فكرة السفور حصلت فينا تقليداً للغرب ، وكنا عالمين بأن سفور المرأة الغربية غير مقتصر على كشف وجهها . وما يدل على كوننا لم نتعظ بعد هذه التجارب المخجلة لدعاة السفور فينا ، ظننا بأن السفور في الغرب لا يتضمن تلك المخزيات المنافية للأداب والاخلاق ، حتى أصبح كالعادة عند الذين يجلسون للوعظ والإرشاد من دعاة التجديد الذي فيه السفور وغيره ، أن ينهوا على الفرق بيننا وبين الغربيين في الاستعداد للحرية ، ويوصونا بمراعاة التدرج إلى أن نبلغ مبلغ مبلفهم في العلم والرقى ، ولكن لا العلم ولا الرقى ، ولا أي شيء ، لا يغلب على الطبيعة ، فالسفور على حد انكشاف نساء الغرب - الذي هو قدوة الشرق اليوم - واختلاط المرأة بالرجال ، يكون لهما أثرهما الطبيعي البتة إلا في النادر الذي لا يثنى عليه الحكم ، وليس التدرج في السفور ولا الاستعداد له إلا تدرجاً في المفسدة ، وإلا استعداداً لما ينجر إليه ، فلا تفرنكم كلمات دعاة السفور الموهة والقيود الاحترازية التي ذكروها لتبرير دعايتهم .

ثم إنى أرى الكاتبة الفاضلة تأسف على عدم تعليم المرأة الدين ليكون لها وازعاً ويقها شر الفساد ، ونراها مع ذلك توافق قاسم أمين على دعوى مساواة المرأة بالرجل التي لا يقبلها الدين . على أنى أقول مخالفاً للكاتبة : لو علموهن الدين بالمعنى الذي يريدونه من الدين من غير أن يجمعوا إليه سد أبواب الفتن وذرائع الفساد ، كالسفور واختلاط الجنسين - الذي هو من الدين أيضاً - لما كفى وازعاً وواقياً .

وقال كاتب (ما قلّ ودل) : « في البلاد التي تحب إلى الحرية يكثر التزعزع الاجتماعي ، كالرجل الذي يظلّ محجوب البصر بعد عملية جراحية في عينيه ، لا يستطيع أن يواجه النور ، فهو في حاجة إلى بصيص ضئيل يتزايد شيئاً فشيئاً حتى يميء يوم يواجه الشمس ساطعة » .

هذا أبلغ مثالٍ يحاول أنصارُ السُّفور التدريجي أن يتمسكوا به ، ومعنى هذا أن مسرح (ستانلي باي) لو كان عَرَضَ على أهل البلاد بعد عشرين سنة مثلاً لما هالهم كما هالَ اليوم حتى أنصار السُّفور مثل هذا الكاتب . وانظر إلى قوله : « كُنَّا نَهْلُلُ كُلَّ مرة نسمع فيها بفتاة مصرية نابغة (وعدُّ هنا بعضَ الفتيات اللاتي تعلَّمنَ في أوربة) نُهْلِلُ ونكَبِّرُ ، ويقول ضعاف الأحلام والعقول : هذا إسراف في تمجيد المرأة والانتصار لها ، وها هو الردُّ عليهم في (ستانلي باي) فإننا يجب أن ننْفُخَ في صور الفضائل ونمَجِّد اللواتي يجلسن إلى مكاتبهن السنين الطوال يدرسن ويبدلن شبابهن في خدمة المجتمع ، فهؤلاء هُنَّ اللواتي يُحضرن هذا المجتمع للحرية العاقلة الرزينة الكريمة ، لا اللواتي يَفْتِشْنَ آخر أزياء البيجانات من شاطئ »

« ستانلي باي » .

من الغريب أن تكون (ستانلي باي) رداً على ضعاف العقول الذين يخالفون الإسراف في تمجيد المرأة والانتصار لها ، أليس في تكوين (ستانلي باي) يدٌ لأنصار المرأة العصرية ؟! فلماذا إذن لم تكن (ستانلي باي) موجودةً في غابر الزمان الذي لم يوجد فيه أنصار المرأة ودعاة السُّفور ؟! فما نحنُ بِفَضْلِهِمْ وبَفَضْلِ انتصارهم قد رَأَيْنَا بجانب النوايغ الثلاث اللاتي ذكرهن الكاتب ثلاثة آلاف أو أكثر من اللواتي قال عنهن : « فالفتاة المصرية التي تعتقدُ نَفْسَهَا آية الآيات في الرشاقة والأناقة ، والتي بدأت تَقْتَبِسُ البيجاما السَّاحِلِيَّةَ الفضفاضة ، وتكشف عن فَخْذَيْهَا ونَهْذِيهَا وظهرها وصَدْرِهَا ، والتي تعرف السرَّ والخفاء ، والتي تحسُّ الرَقَصَ الحديث ، وتعرف كيف تتلاعَبُ بالألفاظ والقلوب ، هذه الفتاة المُحَدَّثَةُ على الحرية هذه الحداثة ، هل تعرف ما تنشده ؟ والمرأة الأوربية التي تقلِّدُها اليوم الفتاة المصرية هي امرأة من بلاد عريقة في الحرية ، حرية اشترتها تلك البلاد بدمائها ، وفي مقدمة الصفوف النساء ، وتلك المرأة تعرفُ كيف تُنظِّمُ بيتها ؟ وكيف تطرز ثوبها ؟ وكيف تعيش بالملِّيم والدائق ؟ وكيف تربطُ ميزانيتها ؟ وكيف تربي إلى جانب هذا كله وقبل هذا كله ولدها ؟ فهي اشترت حريتها بثمن باهظ ، اشترته

بما بذلته من دمٍ وتضحية وإجهاذٍ ، إنها اشترت الحرية على مدى أجيال .

الكلام في تبدل المرأة الشرقية المقلدة ، وإسرافها في الانكشاف والخلاعة ، ولا علاقة له بكون المرأة الأوربية تعرف كيف تنظم بيتها وكيف تربط ميزانيتها . . . الخ ، فلعل الكاتب يغفر للمرأة المصرية إسرافها في التبذل والانكشاف لو عرفت ما تعرفه الأوربية ، وكان ما يلزمه أن يقول : إن المرأة الأوربية لا تسرف هذا الإسراف في الانكشاف والإغراء بالرجال ، لكنه لا يستطيع هذا القول ، ولو استطاعه لكفاه أقواله في خارج الموضوع ، مثل كون المرأة الأوربية من بلاد عريقة في الحرية ، واشترائها الحرية بثمن باهظ ، مما لا يبرر شيء منه إسراف المرأة في الانكشاف ، نعم ! إن نساء الشرق ، ولا سيما المسلمات ؛ اشترين الحرية من غير ثمن بفضل الرجال المحامين المتطوعين ، وكيفما كانت المرأة نالت حريتها بثمن باهظ أو رخيص أو من غير ثمن ، وسواء كانت في الشرق أو الغرب ، فسفورُها بالمعنى المصري لا يخلو عن إفسادها ، وأكرر لك قولي بأن لا يفرِّدك تقلُّبُ الكاتِبين عن السُّفور في الكلمات الخَلابة الفارقة بين نساتنا ونساء الأوربيين الرامية إلى أن السُّفور لا يضرَّهن ، والموهمة بأن نساتنا إذا ارتقين مثلهن فلا يضرَّهن السُّفور أيضاً ، وليس الذنب في السُّفور ، وإنما في إساءة استعماله ؛ فأمثال هذه الاستدراكات من دُعاة السُّفور إنما يُقصدُ بها سدُّ ستار من التضليل على جناية السُّفور الفاضحة ، والعجب أنه ينذر من لا ينخدع بها من أصحاب القلوب الصافية ، فيؤمنون بالفرق بين المرأتين ، ويعتذرون به عما وصل إليه حال المرأة المسلمة من السُّفور ، ويتعبدون الأمل على رقيها مثل الأوربية حتى تخلص من تبدلها الحالي . غمَّت هذه الفكرة ، ولم ينبج من تأثيرها - وعلى الأقل من بعض تأثيرها - حتى الوسط الديني ، فقد قرأت مقالة قيمة في مجلة دينية أجاد كاتبها في شرح مضار الحضارة الغربية بالمرأة المصرية ، وفي ضمن هذا الشرح قوله : « وَرَبَّنَا مِنْ هَذِهِ الْحَضَارَةِ غَيْرُ الْإِبَاحِيَةِ الْمُطْلَقَةِ لِلْفَتَاةِ بَدْعَةٌ جَدِيدَةٌ ، هِيَ بَدْعَةُ الْعُسْرَةِ قَبْلَ الزَّوْاجِ ، مُمْتَشِرَةٌ فِي الْمَدَنِ الْمِصْرِيَةِ عَلَى وَجْهِ

الخصوص . وأصبحنا نحاكي الفرنجة في هذا الضرب من ضروب الإقدام على الزواج ، ولكن مع الأسف الشديد هم ناجحون في خِطَّتِهِمْ في غالب الأحيان ، ونحن مُحْفِقُونَ في كلِّ حين ، وهم مُؤَفَّقُونَ ، ولكنَّا لن نُوَفِّقَ ولو بعد حين ، ذلك لأنهم يُحْكِمُونَ ترتيب الخطَّة ، جادُّون في عَمَلِهِمْ ، وأما نحنُ فمُقَدِّمُونَ عليها بلا ترتيب ولا نظام ولا استعداد ، عابثون فيها أشدَّ العَبَثِ .

والحقُّ الذي يَلِيقُ بأنَّ يُقالَ في مثل تلك المقالة القِيَمَةُ الداعية إلى سواء السبيل ، أنَّ البَشَرَةَ قبل الزواج تضرُّ في كلِّ بلدةٍ شرقيَّةٍ أو غربيَّةٍ ، ولا ينفع معها إحكام النظام ما دام الفتي يختلي مع الفتاة ، كما أنَّ الحقَّ الحقيق أنَّ يُقالَ في السفور العصري أنَّه يضرُّ بالمرأة الشرقية والغربية معاً ، ولا يمنعه من ضرِّهِ رقيُّ المرأة الغربية ، وَحَسْبُكَ وَحَسْبُهَا أنَّها تدخل الحفلاتِ الراقصة الخاصة بطَبَقَتِهَا ويحاصرُها فيها غيرُ زوجها ، وهي في ثوب السهرة الذي لا يسترُ من جسمها إلا قليلاً ، وينمُّ عِثاً تحت القسم الذي يستره ، وَحَسْبُكَ ممَّا تعرفه من رقيِّ المدنية الغربية أنَّها تعتبر الغيرة التي جُبِلَ عليها الإنسان من المعايب وتروِّضه على التخلص منها ! بل إنَّ هذا التوسُّع المُبْتَدَل في السفور إلى النحور والصدور والظهور والأذرع والأفخاذ ليس إلا صنع أوربي ، لم تكن تعرفه المرأة الشرقية ، لا سيَّما المسلمة ، وإنَّما تعلَّمته من المرأة الغربيَّة ، حتَّى أنَّ مناظر (ستانلي باي) الفاحشة الممقوتة بعينها من هدايا الغرب ، ولم تكن الفواحش في مصر وغيرها من قبل مبسوطه في عراء البر والبحر ، وإنَّما كانت منحصرةً في مكائنها ، لكن دعاة الشرق للغرب لا يزالون يزكُّون المرأة الغربيَّة ويمجِّدونها بين الإنكار على فضائح السفور في الشرق بالرغم من كون المرأة الشرقية أخذتها منها ، يزكُّونها لئلا يتَضَعُضِعَ صرح مبدأ التقليد الذي سعى أنصار السفور في بنائه أيَّ مَسْعَاة .

فاعلم هذا ، ولا تستمع إلى أحاديث الفَرَقِ بين المرأة الشرقيَّة والغربية ، فعند ذلك تكون ذا فكرة تامة في مفعول السفور واختلاط الجنسين السيِّء ، واحذر أن

يجعلك المصلِّون نصف عدو لها ونصف نصير . والذي أقصده من كتابتي في هذا الموضوع هو التنبيه على مثل هذه النقط الدقيقة ، ولأفها أكثر ما كُتِبَ ضد السفور حتى من أنصاره أيضاً حين جُبهوا بمخازي المستهترات ، وأكثر الكاتبتين أفصح مني قلماً .

نعود إلى أقوال كاتب « ما قل ودل » ومنها : « ماذا نرى في (ستانلي باي) ؟ هل هو وَسَطٌ شرقي ؟ هل هو وَسَطٌ غربي ؟ لا هذا ولا ذاك ! إنه خليط ، إنه خليط شنيع مدهش متضارب كما لو كان قد امتزج هنا عدوان لدودان ، وكلُّ عدوٍ منها مع ذلك عدو لنفسه ، كالشيطان . فبها لها من بيئة لا تُعرف لها عقيدة ! ولا مذهب ! ولا مبدأ ! ولا دين ! هنا صراعُ الطُّش والتردد والاستهتار والحياء والصراحة والتذبذب والبُكورة والفُجور . »

وهذا الكاتب الذي يبكي هنا ، فيما يبكي ، على الدين ؛ كُتِبَ في قول آخر له جواباً لخطابٍ وارد إليه يقول صاحبه :

« في أثناء دراستي بالخارج رَبَطْتُني وإحدى العائلات هناك صداقةً قويةً ، انتهت بشروعي رسمياً في خطوبة أنسة من العائلة ، ولكنني علَّقتُ الزواج على موافقة أسرتي ، وتصادف رجوعي بالإجازة إلى مصر ، وكنت في زيارة صديق لي ، وجرى حديثُ الزواج ، فرويت له أمري ، وأطلَعْتُهُ على صورة الخطيبة ، فنهاني عن ذلك ، وعرض علي الزواج من إحدى بنات بلدي ؛ وفعلاً تمَّ كلُّ شيء ، وأخذت وعداً رسمياً بذلك ، وفَسَخْتُ خطوبتي مع الأنسة الأجنبية . »

انتهت دراستي ، وحضرتُ نهائياً إلى بلدي ، وما كان أشدَّ دَهْشَتِي عندما وجدت صديقاً من أعز أصدقائي قد استولى على خطيبي المصرية بعد أن قال عني لعائلتها ما قال مالك في الخمر !

فلو أن آنسات الطبقة المتوسطة التي ترغب في الزواج منها يوجدن بكثرة ويكيفية يسهل معها التعارف بهن لما كانت هناك أزمة للزواج ، ولما تعدَّى الصديق

على صديقه بمجرد العثور على آنسة متوسطة في العلم والأدب والجمال والمال ،
الأمر الذي نرغبه جميعاً في كل زوجة .

فهل للأستاذ أن يساعدنا على مَدمِ هذا الحجاب الذي يفصل العائلات عن بعضها ، وأن يعمل على تهذيب بعض عوائدنا الاجتماعية ؟ . ع . ج
فأجاب عنه الكاتب بما نصه :

هذا داءٌ قديمٌ عضالٌ ، تعبنا فيه كثيراً ، وآلامه تتجددُ أبداً . وقد طالَ الحديثُ في هذا الشأنِ حتى مللناه ، ولكن الأزمة الخطيرة التي يعانيها الشبان والفتيات في مصر هي الكفيلة وحدها بأن تحلَّ هذا الموقفُ المُزري حلاً عاجلاً حاسماً حكيماً لمصلحة العائلة المصرية ، فليس يُرضينا أن نَجِدَ ألوفَ الفتيات المصريات العاقلات الطاهرات يُقْنينَ في زوايا البيوت ويذوي شباهنَّ ويقضين حياتهنَّ في هواجس وخيالات وأمانٍ كاذبة ، ويقعن بالزواج الطائش أو الزواج الجاهل في خِيَصَ بَيْصَ ، كأنهنَّ ارتكبنَ ذنوباً يُكْفَرَنَ الآن عنها !

والقول بأن الاختلاط يؤدي إلى الفوضى هو قول مُبْتَدَلٌ لم يقم عليه أيُّ دليلٍ ، لأن الفسادَ بصورته الراهنة شنيع جداً . وقد ارتضى الشبان حياة العزوبة لأنها لا تُكَلِّفُهُمْ كثيراً ، في حين أنها تُكَلِّفُ الفتاة شباها ، وهو أئمن ما تَمْلِكُهُ .
الصاوي

انظر إلى عَدُوَّ القولِ ضدَّ الاختلاط قولاً مبتدلاً ! مع أنه الموافق لقول الإسلام ، فانظره مع ما عاب على ممثلي (ستانلي باي) مِنْ أَنَّهُمْ لا يعرفون عقيدة ولا مذهباً ولا مبدءاً ولا ديناً . فهل للكاتب مذهبٌ يثبتُ عليه ، وأي دينٍ يُبيحُ الاختلاط والعشرة قبل الزواج ، وهي العشرة التي نقلنا بعض الشكايات المُرّة فيها عن الكاتب الآخر المخلص لدينه . وقد سَمِعْنَا عندما كنا في بلاد اليونان شكايات بشأن تلك العشرة عن أفواه المسيحيين ، ولا يدري الكاتب الذي يحكم بأن الفسادَ بصورته الراهنة شنيعٌ جداً ، أن الفسادَ يصيرُ أَشْنَعُ عند توسع الاختلاط كما يحبّه ، وربما يحضر (ستانلي باي) أفواجٌ من الفتيان والفتيات تمضي أيام العشرة

قبل الزواج ، وربما يحصل فيها التبادل بالأزواج المستقبلية ، وما يُستغَرَّبُ على الكاتب بعد أن رأى (ستانلي باي) وأنكره ، قوله بعدم قيام أي دليل على القول بأن الاختلاط يؤدي إلى الفوضى ، مع أن (ستانلي باي) ليس إلا معرض الاختلاط ، وهل لا يعرف السائل الغافل الذي يشكو من الحجاب ويطلب الاختلاط ويشكو مع ذلك من صديقه المستولي على خطيبته ، أن الاختلاط يعبد السبيل إلى استيلاء الصديق على زوجة صديقه فضلاً عن خطيبته ؟

أما قول الكاتب : « فلا يُرضينا أن نجد ألوف الفتيات المصرية يفنين في زوايا البيوت ويذوي شبابهن » فمغالطة مرماها تدعيم ما يدعو إليه من حياة العشرة قبل الزواج بأزمة الزواج الحاضرة ، فهو يدعو المصريين إلى أن يسيموا بناتهم ويزوجوا بهن في الشوارع يبحثن عن أزواج ، ويلقن فتياناً يتبادلن معهم المحبة ، ويعاشرنهم برمة من الزمان قبل الزواج ، مع أن الكاتب وامثاله يعرفون كما يعرفون أبناءهم أن أزمة الزواج أشد في الأمم التي تصرح لبناتها بهذه العشرة قبل الزواج مع من يشأن من الشبان ، لأن الشبان الذين ذاقوا حلاوة هذه العشرة وضرروا بها يستغنون عن الزواج وأمامهم التفنن في اختيار المعاشرة ، أو تزغزع هذه الحياة المختلطة بالفتيات ثقتهم بهن ، فتحذرهن من الزواج ، ويكتفون عنه بشبهه ، وتبوء الفتيات بتمتعهم من حُبهن . نعم ! وأنهن أيضاً يتمتعن من حُبهم الوقتي المستمر مدى العشرة ، فلا يكون شبابهن قد ذوى في زوايا بيوتهن سدى ، فهل يرضي هذا العوض الذي يكسبه حضرة الكاتب الساعي في مصلحتهن ؟ أما موقفتهم بعد انتهاء سوق هذه الحياة إلى الكساد ، سواء عدن إلى زوايا بيوتهن وهن أشباه أرامل ، أو بقين ملقيات في الطرقي ، فلا يهم كاتبنا الاجتماعي !

فالحق أن العشرة قبل الزواج تُعزِّق الزواج وتزاجمه بشبهه عكس ما ادعاه أنصار السفور والاختلاط ، حتى أن هذه المعاشرات أشباه الزوجات يزاجمن بنات البيوت والحُدُور ، فيما يزن زواجهن أيضاً ، كما يُفَسِّدَن الزواج على أنفسهن ،

وعليه يَنْبَغِي غَلَطُ الكاتب أو مغالطته ، فلو أَوْتِ الجميعُ إلى بيوتهنَّ وخدمتهنَّ لما وَجَدَ الشبابُ مَنْ يتلاعَبُ بها من الفتيات ، وَسَتَكْفُون ، فَيَنْفَقُ سوقُ الزواجِ كما كان نَافِقاً قبل أن أُعِدَّت عادةُ العِشْرَةِ قبل الزواج من الغرب إلى بعض بنات المسلمين . ولماذا لا يُخْتَارُ صاحبُ الخطاب مَنْ يتزوَّجُها من بين السافرات المتأهبات للعِشْرَةِ ، وهُنَّ موجودات في مصر ، حتى شكَا كاتبُ المقالة في المجلة الدينية من انتشار هذه البدعة في بلدانها ؟ فلماذا لا يَكْتَفِي صاحبُ الخطاب بهنَّ فيبغِي لِحَقِّ الصالحات الباقيات بالفاسدات ليصطفي زوجته من السافرات القريبات العهد بالاحتجاب ؟!

واستَجِيع إلى خطاب آخرَ كَتَبَهُ دكتور إلى كاتب « ما قُلْ ودُلْ » :
آلني ما قرأت اليومَ وأمسَ عن حادثتي الطبييين ، ولكن ألا ترى أن الشرَّ موجودٌ في كل مكان ولولاه لما شَعَرْنَا بالخير ! وهل نَسِيتَ أنْ مِثْلُ هذه النفوس الشريرة موجودةٌ في كُلِّ مِهْنَةٍ ، وأنَّ الواجِبَ يقضي علينا أنْ نَقِفَ في وجه كلِّ مَنْ وَضَعَ في يَدِهِ شرف أسرة فامْتَهَنَهُ ؟ ولكن ما رأيك يا عزيزي في حالتي المؤلمة وقد ذكرتها لك منذ ثلاث سنوات ؟

لقد عشتُ أكثر من عشرين عاماً أجِبْتُ فتاةً لم أَكَلِمْها مرةً واحدةً في حياتي ، وخطبتُها رسمياً من أبيها ، ولكنه مات ، فضاغ بموته كُلِّ وَغْدٍ . طَلَبْتُها من أخيها ، فباطلني خمس سنوات ، ومن أجلها ، وهي الفتاة التي لم أعرف عنها شيئاً غير أني رأيتها واطمأنتتُ إلى مكانة أهلها الأدبية والأخلاقية ؛ من أجلها فقط تركتُ فُرْصاً كبيرةً منذ عشرين عاماً - سواء أكان في مصر أو في أوربة - تركتُ كُلَّ ذلك لأنِّي اعتقدتُ يوماً أنها تعلم أني أريدها زوجةً ، فحافظتُ على كلمتي عشرين عاماً وأكثر ، وأخيراً اتفقت مع أخيها في صيف العام الماضي في إسكندرية بلديها أني لَنْ أسأله عن أي شيء يتعلَّق بما يخصُّها عن أبيها ، وأنِّي أقومُ مِنْ جهتي بشراء كُلِّ ما يلزم للمنزل من أثاث ، وذلك كي لا أحمله دفع مليم واحد في جهاز

أخته . وفعلًا اشتريت كل شيء ، حتى علب الملح والفلفل ، وصرفت في ذلك أكثر من ٢٨٠ جنيهًا ، وكتبت له بذلك ليحضر ويشاهد بنفسه ما اشتريت ، وليختار بنفسه لأخته سَكَنًا في أي جهة في القاهرة . أتذري ماذا فعل ؟ إنه لم يرد على خطابي ! وأخيرًا كتبت أختي لوالدته ، فكان الرد بعد انتظار عشرين عاماً : لا يمكن أن تتزوج قبل الكبريات ! وهن أربع . والأدعى للسخرية أنها قالت لها : أن المنجمة أخبرتهن أن الزواج يكون تعيساً ، وأحسن شيء قولي لأخيك أن يبحث عن زوجة أخرى ، أما الجهاز الذي اشتراه فله أن يتصرف فيه كيف يريد ! .

لقد انتظرت عشرين عاماً لأسمع بعد ذلك حُكْم المنجمة ، واشتريت كل شيء لأنني أخذت وعداً من رجل ظننته شريفاً . مستقول : ولماذا لا تتصل بها شخصياً ؟ فأقول : إن هذا من المستحيلات ! فهن يعشن في القرن الثامن عشر ، وفي منزل أشبه بحصون القرون الوسطى ! إنها لا تعرف السينما ، وتستغرب كيف أن السيدات يخرجن الآن سافرات ! وهي من الإسكندرية وفيها ! ولم تر البلاج للأن . كنت أظن أنني أراها العالم وأفرجها على الدنيا وهي لما تنزل خاماً ، ولكنني أخطأت يا عزيزي ، لأنني نسيت أن روحينا ربما لا نتمزجان ، فأنا في الحقيقة لا أعرفها ، ولكنني كَيْفْتُ منها مدة عشرين عاماً الزوجة الملائكية التي كنت اتخيلها An Ideal Wife ، وبذا أضعت حياتي وخيبت المنجمة آمالي ، المنجمة التي تحكمت في مستقبل شاب عاش في أوربة وهو من بيئة متعلمة أبعد ما يكون عن الخزعبلات .

فما رأيك ؟ وأنا طيب ، ألا ترى أن في زمرتنا لا يزال هناك أناس كثيرون يراعون الشرف والصلق والوفاء ؟

الدكتور محمود ...

فاجابه :

لست أشك يا أخي لحظة في أن في الأطباء نماذج مثل للخُلُق الكريم . بل إن طائفتهم في مجموعها هي عندنا من أشرف وأكرم الطوائف العاملة .

أَمَا مَسَأَلْتُكَ فخطيرة بقدر ما هي حَزِينَةٌ . فقد رَأَيْتَ طفلةً وَقَدَّسْتَهَا وجعلتَها
أَمَلَكٌ وَمُنَاكَ ، وسافَرْتَ ، وكَبُرْتَ ، وتعلَّمْتَ ، رجاءَ تَرْوِجِهَا ، وقد أَسَدْتُ إِلَيْكَ
هي ، دونَ أنْ تَدْرِي جَمِيلًا إِذْ حَفِظْتُكَ مِنَ الشُّرُورِ ، وَأَخَذْتُ بِيَدِكَ فِي الْعُلُومِ ،
وجعلتُكَ تَفُوزُ وَتَتَفَوَّقُ وتَصْبِحُ رَجُلًا عَامِلًا نَافِعًا فِي بِلَادِكَ . ورَأَيْتَ كُلَّ الدُّنْيَا مِنْ
غَيْرِ أَنْ تَنْسَاهَا !! فَمَاذَا تُسَمِّي ذَلِكَ ؟ إِنَّهُ وَفَاءٌ فِعْلًا ، وَلَكِنَّهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ الْآنَ .
أَنْتَ تَقِي لِشَخْصٍ إِمَّا أَنَّهُ مَسْلُوبُ الْإِرَادَةِ وَالْفِكْرِ ، وَإِمَّا أَنَّهُ قَدْ نَسِيَكَ تَمَامًا ، لِأَنَّهُ
لَا يَزْعُمُ لِنَفْسِهِ كُلِّ هَذَا الْوَفَاءَ بَعْدَ نَظَرَةِ طُفُولَةٍ بَرِيَّةٍ ، فَلَمَّاذَا تَحْرَقُ دَمَكَ ،
وَتَسْجُنُ نَفْسَكَ فِي سَجَنٍ ضَيِّقٍ مَعَ شَيْخٍ لَا وَجُودَ لَهُ ؟! إِنِّي وَاثِقٌ مِنْ أَنَّكَ لَوْ رَأَيْتَهَا
الْيَوْمَ لَأَنْكَرْتَهَا . فَقَدْ تَبَاعَدَ مَا بَيْنَ تَرْبِيَّتِكَ وَتَرْبِيَّتِهَا ، وَقَدْ سَافَرْتَ أَنْتَ وَرَأَيْتَ
الْعَالَمَ ، بَيْنَمَا هِيَ لَمْ تَعْرِفْ مِنَ الْإِسْكَندَرِيَّةِ قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا . إِنَّ الْفُرْصَةَ أَمَامَكَ
سَانِحَةٌ ، فَفِي بَنَاتِ وَطَنِكَ كَثِيرَاتٌ يَتَمَنَّيْنَ أَنْ يَفْتَحَنَّ لَكَ أَبْوَابَ السَّعَادَةِ ، فَاعْتَنِمْ
مَا بَقِيَ مِنَ الْعَمْرِ ، وَاللَّهُ يَقْضِي لَتِلْكَ الْفَتَاةِ الشَّهِيدَةِ مَنْ يُنْقِذُهَا .

الصاوي

كَانَ الْوَاجِبُ عَلَى الْأَسْتَاذِ الْكَاتِبِ أَنْ يَعْتَبِرَ وَيُفَكِّرَ مِنْ حَالِ صَاحِبِ هَذَا
الْخُطَابِ الَّذِي يَعْتَرِفُ الْكَاتِبُ بِأَنَّهُ مِنَ النَّهَاجِ الْمَثَلِيِّ لِلْخُلُقِ الْكَرِيمِ ، وَهُوَ لَا يَسْأَلُ
الْكَاتِبَ الْمُسَاعِدَةَ عَلَى هَذِهِ الْحِجَابِ ، كَانَ الْوَاجِبُ أَنْ يَعْتَبِرَ وَيُفَكِّرَ مَاذَا الَّذِي
حَكَّمَ عَلَى شَابٍ يَتَعَلَّمُ فِي مِصْرَ وَفِي أَوْرُبَةِ تَحْشُرُ النِّسَاءَ الْفَاتِنَاتِ السَّافِرَاتِ ،
وَبِمَكَّتْ عِشْرِينَ عَامًا مُرَبُوطًا بِفَتَاةٍ فِي مِصْرَ لَمْ يَرَهَا إِلَّا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ، وَلَمْ يَكَلِّمْهَا
كَلِمَةً ، وَلَمْ يَعْرِفْ عَنْهَا شَيْئًا غَيْرَ مَكَانَةِ أَهْلِهَا الْأَدْبِيَّةِ ، وَغَيْرِ أَنَّهَا لَا تَعْرِفُ السِّينِمَا ،
وَتَسْتَعْرِبُ كَيْفَ أَنَّ السِّيدَاتِ يَخْرُجْنَ الْآنَ سَافِرَاتٍ ! وَهِيَ مِنَ الْإِسْكَندَرِيَّةِ !
وَفِيهَا ! وَلَمْ تَرَ الْبَلَاغَ لِلْآنَ ! أَلَيْسَ هَذَا سِحْرُ الْحِجَابِ ؟ بَلَى ! وَهُوَ الَّذِي خَيَّلَهَا لَهُ
زَوْجَةً مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، فَلَمْ تَمَلَأْ عَيْنَيْهِ السَّافِرَاتِ الْحِصَانُ ، وَجَعَلَهُ يَعْدُهُنَّ
مُبْتَدِلَاتٍ .

قد اُكثِرْتُ النُّقْلَ عَنِ الْكُتُبِ ، لَاسِيَا عَنْ كَاتِبٍ « مَا قَلَّ وَذُلَّ » ،
بِنُصُوصِهِمْ ، وَإِنْ طَالَتْ كَمَا هُوَ ذَا بِي ؛ لَثَلَا يَكُونُ قِرَاءَ مَقَالَتِي قَدْ سَمِعُونِي
فَحَسِبَ ، بَلْ سَمِعُوا مَعِيَ الْمَعَارِضِينَ الَّذِينَ لَمْ يُتَّقَدْ عَلَيْهِمْ ، وَهُمْ عَنْ يَغْبَأُ النَّاسُ
بِكَلَامِهِمْ ، وَقَلِيلًا يَمْنُ يُزِيدُ أَقْوَالَهُمْ دَعْوَايَ مِنَ الْمَوَافِقِينَ وَالْمَحَايِدِينَ ، كُلُّ ذَلِكَ فِي
مَقَالَةٍ وَاحِدَةٍ .

وَقَالَ كَاتِبٌ « مَا قَلَّ وَدَلَّ » ، أَيْضًا ، وَهَذَا آخِرُ مَا أُنْقَلُهُ عَنْهُ :
رَأَيْتُ رَجُلًا فَاضِلًا ، ذَا مَرَكِزٍ مُتَمَازٍ وَخَلْقٍ قَوِيمٍ ، يَجُرُّ وَلَدَهُ الصَّغِيرَ بِيَدِهِ ،
يَسِيرَانِ مُتَاقِلَيْنِ ، كَأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا عَبْدٌ عَلَى صَاحِبِهِ ، وَدَخَلَ الْأَبُ قَرَبَ وَقْتِ
الْغَدَاءِ دَكَانَ يُقَالُ لِيَحْمِلَ طَعَامًا جَاهِزًا مِنَ الْعَلَبِ الْمَحْفُوظَةِ أَوْ الْجَبْنِ وَالزَّيْتُونِ
وَالْحُلُوى ، لِأَنَّ بَيْتَهُ بَغْيَرُ امْرَأَةٍ ! .

فَلِمَاذَا ؟ هَلْ مَاتَتْ أُمُّ هَذَا الْوَلَدِ ؟ كَلَّا ! وَلَكِنَّهَا شَرٌّ مِنْ مَائَةٍ . إِنَّهَا امْرَأَةٌ
أَجْنَبِيَّةٌ آوَاهَا وَأَعْطَاهَا اسْمَهُ بَعْدَ مَا لَفَّظَهَا أَهْلُ بَلَدِهَا ، وَكَانَ يَجْرُمُ نَفْسَهُ لَتَسَافِرَ هِيَ
كُلَّ صَيْفٍ إِلَى أَهْلِهَا فِي أَوْرِبَةِ ، فَلَمْ يَثْبُرْ هَذَا فِيهَا ، بَلْ تَرَكَّتْ لَهُ أَوْلَادُهُ طَالِبَةُ
الطَّلَاقِ ، وَطُلِّقَتْ فَعَلًا ، وَتَزَوَّجَتْ مِنْ صَدِيقٍ لَهُ .

لَوْ كَانَتْ مِصْرِيَّةً لَكَانَ فِي الْأَمْرِ نَظَرٌ . كُنَّا نَقُولُ : إِنَّ أَهْلَهَا زَوَّجُوهَا رَغْمًا عَنْهَا
مِنْ رَجُلٍ لَا يَسْتَحِقُّ الْحُبَّ ، وَلَكِنَّهَا أَجْنَبِيَّةٌ ، فَجَرَتْ بِلَاذِهَا بِمَحْضٍ اخْتِيَارِهَا ،
وَعَرَفَتْ زَوْجَهَا الشُّهُورَ أَوْ السِّنِينَ قَبْلَمَا تَتَزَوَّجُهُ .

فَهَذِهِ الطَّائِفَةُ تُسَبِّدُ الرِّجَالَ كَمَا تَشَاءُ . أَخَذْتُ شَبَابَ رَجُلٍ وَأَعْطَيْتُهُ
أَوْلَادًا ، ثُمَّ زَهَّدْتُهُ وَتَخَلَّتْ عَنْهُ هُوَ وَأَوْلَادُهُ لِتَأْخُذَ شَبَابَ رَجُلٍ آخَرَ وَتَعْطِيهِ أَيْضًا
أَوْلَادًا .

لَيْسَ الذَّنْبُ ذَنْبُهَا وَحْدَهَا ، وَإِنَّمَا أَيْضًا ذَنْبُ الَّذِي أَغْوَاهَا ، فَهَذَا الرَّجُلُ
الَّذِي يَدْخُلُ بَيْتَ صَدِيقٍ لَهُ وَلَا يَتَحَرَّجُ مِنَ النَّظَرِ إِلَى زَوْجَتِهِ نَظْرَةً خَائِنَةً ، ثُمَّ
لَا يَتَحَرَّجُ مِنْ تَطْلِيقِهَا ، غَيْرُ مَكْتَرِبٍ بِالصَّدِيقِ وَالصَّدَاقَةِ ، هَازِنًا بِحَرَمَةِ الزَّوْجِيَّةِ

وَحُرْمَةُ الْأُمُومَةِ وَالْأَبُوَّةِ . . هذا الرجل ، بماذا يُحْكَمُ عليه ؟!

مروءة الرجال تَقْتَضِي بأنه إذا رأى المرأة باذرةً هذا الحبَّ الشائِنَ وَلَى الأدبار ، ووضَعَ بينه وبينه حَدًّا ، لأن في هذا الحبَّ خراباً ودماراً . أيُّ مشهدٍ أشدَّ المآلَ للنفس من رجلٍ يجرُّ قدميه ويمرُّ ولذَّته ساعةَ الغداء في الطرقات ليشتري من بقال طعاماً ، لأنه لا يسبغ للطعام مذاقاً ، لأنه مطعون في قلبه بخنجرٍ من يد صديقه ومن يَدِ زَوْجَتِهِ ؟!

الصَّواري

ينسى الكاتب حين قال : « لَيْسَ الذَّنْبُ ذَنْبُهَا وَحْدَهَا ، وَلَئِنْ أَيْضاً ذَنْبُ الَّذِي اغْوَاهَا ، فهذا الرجل الذي يدخلُ بيتَ صديقٍ ولا يتحرَّجُ من النظر إلى زوجته نظرةً خائنةً . . » المذنب الثالث وهو الرجلُ الذي رَئى له الكاتبُ ، أعني الزوج الذي أَدْخَلَ أصدقاءَهُ على زَوْجَتِهِ ، وهي قد تكون مَلَكاً في الجمال ، ولن تكون مَلَكاً في الطبيعة ، وكذلك الأصدقاء . ومع أنه يَنْسَى المذنبُ الثالث لا يذكر منشأ الذَّنْبِ وَالْفَسَادِ ، وهو السُّفُورُ والاختلاطُ ، وبذلك يكون الكاتبُ قد نَسِيَ المذنب الرابع أيضاً ، وهو كل مَنْ يدعو للسُّفُورِ بلسانه أو قَلَمِهِ ويدافع عنه ، والله لا يَغْفِرُ لهذا المذنبِ ، وَإِنْ غَفَرَ لِلأَوَّلِينَ ! وعَطَّ العَجَبُ كُلَّ العَجَبِ أَنَّ الكاتبَ لا يرى نَظَرَ الأصدقاءِ الداخِلِينَ على زوجة الرجل نظرةً خائنةً ، طبعياً بمعنى أنه مقتضى الطبيعة المُنْتَصِرَة على كل شيء ! فهذه الحكايةُ المنشورةُ بقلمِ الكاتبِ الذي هو من ألدِّ أعداءِ الحجاب حجةً قاطعةً عليهم ، وأنَّهم مَهْمَا أَنْكَرُوا الحقَّ الواضح ، واصرُّوا على دعواهم ، فهي لا بدَّ أن تَفْضَحَهُمْ بلسانِ المُشَاهِدِ ، مثل (استانلي باي) ! ولا بدَّ أنَّهم مخربون بيوتهم بأيديهم كما وَقَعَ لكاتب (ماقل ودل) في هذه الحكاية .

ومن أباطيل القاصرين لمضرة السُّفُورِ على المرأة الشرقية التي تقلد المرأة الغربية ، قولهم : إنَّ الرجلَ الغربيَّ يرى منذ طفولته النساءَ عاريات الأعضاء

الكثيرة ، ونشأ يَتَنَهَّنْ ، فلا تَهْبِجُهُ تلك الأعضاء ، في حين أنها تهيجُ الرجلَ الشرقي الذي لم يَأْلَفْ رؤيتها ، وهو حديث العهد بها . وهذا قولٌ باطلٌ ، وإن كان في صورة الحقِّ مِنْ حيثُ أَنَّهُ متضمَّنٌ لتحذيرِ المرأةِ الشرقيَّةِ من تقليدِ الغربيةِ ، حتى أَتَكَ تَحْسَبُهُ من كلامِ أعداءِ السفورِ ، لكنَّهُ مِنْ ناحيةٍ أخرى يبيحُ لها في المستقبلِ إذا تقادَمَ عهدُ السفورِ فينا وحصلتْ الإلفَةُ به لعيونِ رجالنا ، بل إنَّ مَنزَلةَ إباحةِ سفورها حالاً بتخفيفِ وَقْعِهِ في النفوسِ وطَمَأنِنتِها بالإلفَةِ المُستقبَلَةِ ، وهو مع هذا مُبْنِي على دَعْوَى غيرِ صحيحةٍ من كَوْنِ الرُّجَالِ في الغربِ لا يَهْتُمُّونَ بِرُؤْيَا ما تكشفه النساءُ هنالك من أعضاءٍ لها جاذبيَّتُها ، فهل نساءُ الغربِ إذَنْ يَعْمَلْنَ ما يَعْمَلْنَ مِنَ التَّائِقِ والتَّنَفُّنِ في الانكشافِ عَبَثاً لا مطمَحَ لَهُنَّ به ولا مَطْمَئِنٌّ عند الرجالِ ؟ وهل ليسَ هناك أيضاً مَطْمَئِنٌّ عند النساءِ للرجالِ الَّذِينَ وَضَعُوا أَسَسَ المَدِينَةِ الغربيَّةِ ومرايِسَها الاجتماعيَّةِ حينَ ادَّخَلُوا فيها حفلاتِ الرقصِ مع النساءِ ومُخَاصَرَتِهِنَّ في أَعْرَى ما يكونَ عليهنَّ من لباسِ الزَّيْنَةِ ؟ فهل هُنَّ عَابِثُونَ بِعُقُولِ أَنْفُسِهِمْ ؟ وهل هُنَّ عَابِثَاتُ بِعُقُولِ أَنْفُسِهِنَّ ؟ أم المَدْعُونَ مِنَّا بِأَنَّ المرأةَ الكاسِيَّةَ العاريَّةَ في الغَرْبِ لا تثيرُ رغبةَ الرجلِ ولا تثيرُ عَيْنِيهِ ، عَابِثُونَ بِعُقُولِ الشرقيِّينَ المسلمينَ ؟ فالْحَقُّ أَنَّ هذهَ جِراءَ غربيَّةٍ مَذْهَبَةٌ مِنْ دُعاةِ السفورِ ، تُدَلِّكُ على مُبَلِّغِهِمْ في الإقدامِ على هَذَرِ القَوْلِ ، واغْرَبَ مِنْهُ اقْتِناعٌ كَثِيرٌ مِنَ المُعَقِّلَةِ بِقَوْلِهِمْ هذا ، مع كونه من الوَهْنِ بحيثُ لا يَقَاوِمُ شيئاً قليلاً مِنَ النُّظَرِ والتَّفَكُّيرِ .

نعم ! إِنَّ للغَرْبِ إلفَةً بِإسْرَافِ النساءِ في السفورِ والاختلاطِ بالرجالِ مع الإلفَةِ بما ينطوي ذلك عليه من المَفاوِئِ ، فيظُنُّ الغافلُ أَنَّ السفورَ والاختلاطَ لا يفعلونَ في تلكِ البلادِ فعلها الطبيعي ، وقد لَفَّتْنَا النُّظَرَ فيها سَبَقَ إلى أَنَّ النساءَ السافراتِ لا يكتفينَ بالكشفِ عن أعضائِهِنَّ بِحَدِّ ما يكشفُ عنه الرجالُ مِنْ أعضائِهِمْ ، في حينَ أَنَّ غايةَ ما يُطَلَّبُ لَهُنَّ مِنَ الحُقوقِ هي المساواةُ بالرجالِ ، فلا بُدَّ أَنْ يكونَ مَنزَرُ لِهَذَا الفَرْقِ العظيمِ بينَ الجنسينَ في التلبُّسِ والتَّعَرِّيِ ، ولا بُدَّ أَنْ يكونَ مَنزَراهُنَّ في الميلِ إلى التعرِّيِ ، سواءَ كانَ في الشرقِ أو الغربِ ، هو تغذية عيوني

الناظرين . ولو صَفَحْنَا عن وجود هذا القصد فيهنّ ، فالتغذّي حاصلٌ لا محالة ، فالشرع الإسلامي الذي يقول : « الْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ ، وَالْيَدَانِ تَزْنِيَانِ » وَطَبْعُ الْمُسْلِمِ الْغَيُورُ عَلَى عِرْضِهِ لَا يَقْبَلَانِ أَنْ يَسْتَمْتِعَ مِنَ الْمَرْأَةِ بِأَيِّ صُورَةٍ مِنْ صُورِ الْإِسْتِمْتَاعِ مَنْ لَا حَقَّ لَهُ فِي ذَلِكَ .

ومن الْعَبَثِ الْوَاضِحِ بِالْعُقُولِ مَا قَرَأْتُهُ بِالْجَرَائِدِ نَقْلًا عَنْ مَقَالٍ مَكْتُوبٍ فِي مَجْلَةِ غَرْبِيَّةٍ « رِيدِرْزُ دِيْنِجِسْت » تُعَدُّ فِيهِ الصُّفَاتُ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَتَحَلَّى بِهَا الشَّابُّ الْعَصْرِيُّ : « كَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَتَعَلَّمَ الشَّابُّ الرَّقْصَ ، لِأَنَّهُ بِجَانِبِ كَوْنِهِ رِيَاضَةً بَدَنِيَّةً ، فَهُوَ فَنٌ يَنْمِي فِيهِ رُوحُ الْفَضِيلَةِ ، وَيَعُودُهُ النَّظَرُ إِلَى الْجِنْسِ اللَّطِيفِ بَعَيْنِ مَجْرَدَةٍ مِنَ الْخِيسَةِ وَالشَّهَوَاتِ » يُفْهَمُ مِنْ هَذَا أَنَّ الْمَدَنِيَّةَ الْغَرْبِيَّةَ تَوَاضَعَتْ مَعَ الْمُتَمَسِّكِينَ بِهَا عَلَى أَنْ تُبَاعَ الرَّذِيلَةُ فِي سَوْقِهَا بِاسْمِ الْفَضِيلَةِ ، وَسَبَبُ نِفَاقِ هَذَا الْبَيْعِ أَنَّهُ يَتَضَمَّنُ لَذَّةً مَادِّيَّةً لِلْمَتَابِعِينَ ، فَيُهْتَكُ فِي سَبِيلِهَا الْحَيَاءُ ، وَيَسْمَى الْإِعْتِيَادُ عَلَى قِضَاءِ الشَّهْوَةِ فَضِيلَةً وَتَجَرُّدًا عَنِ الشَّهْوَةِ وَالْخِيسَةِ ! وَيُغَالِي فِي الْجُرْأَةِ ، فَتُعَابُ عَلَى الْإِسْلَامِ فَضِيلَتُهُ الْمَانِعَةُ مِنْ سَفُورِ النِّسَاءِ وَاخْتِلَاطِطِهِنَّ بِالرِّجَالِ الْأَجَانِبِ ، حَتَّى يَحْتَاجَ الْإِسْلَامُ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ إِلَى دِفَاعٍ يَمْتَدُّ عَلَى طُولِ اعْتِدَاءَاتِ الْعَابِثِينَ ، فِي حِينِ أَنَّ الْحَضَارَةَ الْغَرْبِيَّةَ الْقَاضِيَةَ عَلَى الْفَضِيلَةِ ، وَالْمَبْنِيَّةَ عَلَى أُسَاسِ قِضَاءِ الشَّهْوَةِ ، سَالِمَةٌ مِنَ التَّعْيِيبِ وَالْإِهْمَامِ ! وَهَذِهِ الْمَعَاكِسَةُ بِالْحَقَائِقِ تَرُوجُ بِفَضْلِ تَعْصُبِ الْغَرْبِيِّينَ لِمَا يُنْسَبُ إِلَيْهِمْ مِنْ تَقَالِيدٍ وَضَلَالٍ أَبْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ صَرَاطَهُمُ الْمُسْتَقِيمَ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ وَرَاءِ هَذِهِ الْحَيَاةِ الْمُخْتَلِطَةِ مَا يُؤَيِّدُهَا مِنْ قُوَّةِ الْغَرْبِ وَشَوْكِيَّةِ لَعْدَتِ سَوَادُ وَجْهِ لَأَيِّ قَوْمٍ اخْتَارَهَا ، وَلِهَذَا كَانَتْ مَسْأَلَةُ النِّسَاءِ أَعْظَمَ حَاجِزٍ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْمَدَنِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ ، فَالْمُسْلِمُ لَا يَقْبَلُ الْحَيَاةَ الْعَارِيَّةَ الْمُخْتَلِطَةَ لِنِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ مَا دَامَ يَصِحُّ لَهُ إِسْلَامُهُ ، وَالْغَرْبِيُّ لَا يَرَى كَحِجَابِ النِّسَاءِ أَكْبَرَ مَانِعٍ فِي اخْتِيَارِ الْإِسْلَامِ دِينًا لَهُ ، وَرَبَّمَا لَا يَشْكُ فِي كَوْنِهِ أَحَقُّ الْأَدْيَانِ بِالْقَبُولِ ، لِأَنَّهُ يَضَعُ عَلَيْهِ فِرَاقُ مَا تَعُودُهُ مِنَ الْحَيَاةِ الْمُخْتَلِطَةِ بِالنِّسَاءِ ، وَفِيهَا حِظٌّ لِلنَّفْسِ عَظِيمٌ ، وَفَضْلًا عَنِ الْغَرْبِيِّ الْغَيْرِ الْمُسْلِمِ ، فَصَاحِبُكَ الْمُتَفَرِّجُ لَا يَصَافِيكَ الْمَوَدَّةُ

والإلفة حين يراك لا تبيحه مخالطة نساء يتيك ومجالسهن في حضورك وغيابك .

نعود إلى قول كاتب المجلة ؛ فالرجال الذين يحضرون حفلات الرقص المزدهرة بمختلف الأنوار ، ويحاصرون فيها النساء العاريات عن الثياب إلا قليلاً كالمعدوم ، كأنهم على ادعاء كاتب المجلة يحاصرون قطعاً من الخشب من غير أن يشتها شيئاً من أولئك المشتهايات ، وكان سهلاً على الذين آمنوا بمثل هذه الترهات أن يضعوا الحجاب على عقولهم من أن يضعوا الحجاب على النساء ، فتعسا لهم .

وقد ذكرني قول تلك المجلة ما كنت قرأته في بعض جرائد تركية قبل بضع سنين ، والجرائد يومئذ تتسابق في المباشرة لمرضاة حكومتها اللادينية الراغبة في انكشاف النساء واختلاطهن بالرجال : « إن الحياة المختلطة الحرة لا ينظر فيها أحد إلى امرأة أحد نظرة سوء ، والمحاذير المتصورة فيها إنما تجري في الذين لم يتأدبوا بأداب المدنية ، ولم يرق ولم يرق إحساسهم . نعم ! إن الرجل عند أول عهديه دخولاً في تلك الحياة ، ورؤيته النساء الجميلات المتجردات حوله يندهش ويستحي ، ثم تثور نفسه الأمانة بالسوء ، لكن متعود هذه الحياة ، الناصح الشعور والإحساس ، يدخل مثلاً حمامات البحر ، ويرى على الشاطئ أو في ملتقى البحر به حيث لا يجاوز الماء قدر شبر ، نساء عاريات من أنفس الفانس ، ولا يخطر بباله إغواء الشيطان أو إغراء النفس الأمارة . ثم إن هذا الرجل يرقص مثلاً في حفلة ساهرة مع النساء الأشباه العاريات ، عينه إلى عينيها ، وجسمه إلى جسمها ، من دون أن تتحرك منه شفرة ، وهو بالعكس يمارس عرقه الضعيف حيال المرأة ، وينضج ، ويربى نفسه الأمارة ، ففي هذه الحياة المدنية آمن على العفة وارتياح للنفس معاً ، فقد حكى لي واحد من الراسخين في هذه الحياة أنه رأى امرأته يوماً عند طاهي منزله (طوسون) وهي سافر ، فنهاها ، وعهدي به أنه يذجل زوجته كل ليلة على أحبابه فيراقصونها ، ويختلون معها ، فمن أجل ذلك

تعجبت من قوله ، وسألت : أَلَسْتَ أَنْتَ تُدْخِلُهَا سَافِرًا عَلَى كُلِّ أَحَدٍ ؟ فاجاب :
إنهم لا يقاسون بالطاهي (طوسون) لأنهم يدرون أن يحترموا المرأة ، وهو يعتبرها
مخلوقاً يؤكل مثل الكُمثرى .

فانظر قول هذا الكاتب وتعلم إن لم تكن ذا علم بأن مخالطي النساء
ومراقصهن بين أيديهم ، ويقصدون بذلك إلى تربية نفوسهم الجامعة ، وتعويدها
ضبط شهواتها ، واجمع هذا القول إلى كاتب المجلة الغربية ، ثم اقض منها
العجب ! .

ولعلك يَقَعُ في غيَلَتِكَ أن المتعود لمجالسة النساء وملاصتهن لا يكون
كحديث العهد بتلك الأحوال ، وأن لحالة التعود والتكرار حُكْمًا ليس في حالة
الابتداء ، وهذان الكاتبان اعتمدا في تقرير القارئ على وجود الفُرق بين
الحاليتين ، ونحن لا نجتاز هذه النقطة لكونها من أبدع دعائم السفور التي يَسْنُدُ
دعائمه مغالطاتهم إليها ، وهي على شِدَّةِ بطلانها أشبه شيء بالحق ، فنحن
لا نجتازها من غير تأدية حَقِّها ، وفي مثل ذلك مِيزَةٌ مقالنا عن موضوع السفور ،
فقول : يجب على المسلم البَقِظُ أَنْ يَسْأَلَ الدعاة المغالطين الذين يريدون أن يُنزِلُوا
الناس مَنَزِلَةَ الحمقى : إذا كان واضعوا الحياة الحديثة المختلطة وضعوها لإزالة تأثير
أحد الجنسين على الآخر وإخماد الشهوة المتقابلة بينهما ، فهاذا الغرض من هذا
الوضع المضاد للطبيعة ، وما هي الفائدة المجنية منه مع أن مصلحة الناس في
إيجاد اللذات لهم دون إعدامها ؟ وما هي الفائدة في تنزيل قيمة أحد الجنسين عند
الآخر بإزالة ما بينهما من حرارة الجاذبية وإبدالها بالبرودة والجمود ؟

ثم نقول : نعم ! إن متعود الشيء ليس كالمبتدئ الحديث العهد به ، إلا أن
هنا نقطة في غاية الأهمية يلزم التنبيه لها ، وهي أن مناسبة الرجل بالمرأة المستجيعة
لأسباب الجاذبية إن اقتصرَت على مجالستها والتماس الحاصل بين أعضائهما عند
التفافهما متراقصين ، فتكرَّرَ هذه الحالة مهما كَثُرَ فلا يَسْكُنُ التهايلات الجنسية

ولا يطمئنها ، وبالعكس يُثِيرُها وُسْدُها ، وأنتم مهما أَكْثَرْتُم من المناسبة بالنساء على أن تذهبوا بها إلى حَدٍّ فَتَقْفُوها عنده ، مهما أَكْثَرْتُم من أعدادها وأنواعها ، فلا تكونون قد أَرَوَيْتُم بها أنفسكم ، وإنما ازدَدْتُم ظمأً على ظمأٍ ، فيكونُ مفعول التعويد هنا بالعكس ، فإن كان في الدنيا شيء لا يَقْنَعُ بقدر ما نيل منه ولا يستغنى به عن الوصول إلى غايته ، فذلك الشيء هو ملاقاتُ المرأة ومماسُتها ؛ وما أَصْدَقُ قول الشاعر :

وَكُنْتُ إِذَا أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا
لِقَلْبِكَ يَوْمًا اتَّعَبْتُكَ الْمُنَاطِرُ
رَأَيْتُ الَّذِي لَا كُلُّهُ أَنْتَ قَائِرُ
عَلَيْهِ وَلَا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرٌ^(١)

وَعَلَيْهِ ، فدعوى التامين على أن إغواء الشيطان وإغراء النفس الامارة في ملاقات الرجل بالمرأة يزول تأثيرهما بتكرار الملاقاة وتعويدها النفس في حياة العشرة الجديدة المدنية ، باطلَّةٌ غير مسموعة .

نعم ! إنما يسلمُ بحصول نوعٍ من شيعِ العَيْنِ وصمَمِ الإحساس في التهايلات الجنسية برؤية الكثيرات من النساء والتلاعب بهنَّ بشرط واحد ، هو أن تنضمَّ إلى هذه المقدمات نتائجها الطبيعية ، فينتهي عند ذلك غلواء رجال الحياة الجديدة ، ويسكنُ جماعُ أنفسهم ؛ لكن تأمين العِفَّة لحياة العشرة الجديدة بهذه الصورة يكون كوضع عدم الأمن موضع التأمين ، وقصاراه أن تكون عيون رجال

(١) فلولم يكن عصر السفور والاختلاط قضى على العشق القديم الذي كان قد يؤدِّي إلى موت العاشق أو جنونه ، لقلنا : إن هذه المناسبة بالمرأة الجميلة الواقعة عندما يكون الرجل معها في أندية الرقص والسهر ، توقعه في غالب العشق ونمته أو نمته . لكن عصر السفور والاختلاط عصر ابتذال المرأة يُغني الجنسين عن العشق ومحقق قول الشاعر القديم الذي هو مقول لهذا العصر أكثر من كونه مقولاً لعصره :

صَاحِبُ عَزَّةٍ أَلَا حُبَّ غَايَةِ فِي وَضَلِ غَايَةِ مِنْ وَضَلِهَا خُلْفُ

الحياة العصرية شَبَّعى تجاه النساء بفضّل اللاتي لقاها منهنّ وقصوا أوطارهم منها ، فلو أمكنَ أن يُقال : شَبَّعى تجاه اللاتي يلقونهنّ بفضّل اللواتي لم يلقوهنّ لا اعتبرناه تأمينا حقيقيا . فهذا تحليلُ مغالطة أنصارِ السُّفور والحياة المختلطة ، وقول كاتب الجريدة التركية « إن في هذه الحياة أُنما على العِفّة وارتياحاً للنفس » يكفي بعضه في نقض بعضه .

أما سِتْرُ الرجلِ المدنيّ المحكى زوجته عن الطاهي (طوسون) ، فسيّء عدم اعتباره أهلاً لأن يخالط نساء مَنْ هم في طبقته ، والحياة المدنيّة المختلطة تتطلب الكفاءة في مشتركها ، فيلزم أن يكونوا من الذين يذرون آداب الاستفادة من جمال المرأة ويُقدِّرون مقابل ذلك على الإفادة ، وكلا الشرطين لا يوجد في الطاهي (طوسون) .

وإني لا أقبلُ الاتهام بسوء الظنّ في تحليل هذه المسائل ، فتلك الحياة منظويّة لا محالة على مفاسد لا تُتفقُ مع العِفّة ، إلا أن التجاهل بالمفاسد يقوم في تلك الحياة مقام العِفّة ، وسيُغْنى كونه تلك المفاسد معتاضة بأمثالها^(١) .

ولو فرضنا أن هذه الأزياء العصرية للنسوان ، البليغة في التزين المكشوف ، الحرّية يُعرفُ الرُفاف ؛ والاختلاطُ الخليع في تلك الأزياء بالرجال الأجانب ، والترافضُ معهم ملتفات بهم ساقاً لساق ، ووجهاً لوجه ، وصدرًا لصدر ؛ لو فرضنا فرضَ المحال أن هذه المقدمات لا تُعجّرُ الجنين إلى ما وراءها من المفاسد ، فعسبُها هي نفسها مفسدة ، إذ لا يُسوِّغُ الشرعُ الإسلامي ولا الطباع السليمة أن يُقضيَ الرجالُ الأجانب بعضَ شهواتهم من أجسام زوجاتك وبناتك وأخواتك ،

(١) وكثيرٌ من الكتاب يعيرون على شعراء الشرق السالفين إسرارهم في الخلاعة وهجّة القول عند التشيب . وإني أقول : كان الفسوق عندهم من المخيلات الصعبة الوصول ، لكن تقليد الغرب في سفور النساء واختلاطهن بالرجال نقل الفسق من الألسن إلى الأعمال ، فأصبحت مواصلة النساء من الأمور العادية التي لا تُذكرُ .

ولا أن تقضي أنت ذلك من أجسام زوجاتهم وبناتهم وأخواتهم ؛ كما لا يسوَّغان أن يقضوا هم ولا أنت منها تماماً ، وشريعتنا القيورُ تحكمُ بلمسةٍ واحدة بين الرجل والمرأة الأجنبية من تلك اللمسات الخليعة المنطوية على الشهوة بالمصاهرة بينهما ، فتحرمُ أصولَ أحدهما وفروعهُ على الآخر .

ولنسمع هنا لقول كاتب مصري يتعلم في جامعة غربية :

« إن نظامَ الاختلاط بين الشاب والفتاة في سن مبكرة معدومٌ في مصر ، لا يكاد يكون له أثر إلا في بعض أسرنا الأرستقراطية من الذين عاشوا رذحاً من الزمن في أوربة ؛ أما في مصر ، فإنَّ الشاب والفتاة يبقيان من عهد طفولتهما منفصلين تمام الانفصال ، فيحرمُ عليهما الحديث حتى بين أولاد الأسرة الواحدة وبناتها ، ويحللونُ تحریمَهُم هذا بأنَّ ذلك الحاجز الذي أقاموه بينهما يمنعُ ما قد يحدث من أهواء الشباب . ولو فكروا ملياً لوجدوا أنَّهم مخطئون خطأ كبيراً ، وأنَّ نتيجة ذلك على عكس ما كانوا يظنون ، ففي هذه الحالة يعملُ كل منهما على الاتصال بصاحبه لا عن طريق الصداقة البريئة وإنما بغية الاتصال الجنسي الذي مُنعَ اختلاطُهما من أجله ، فكأنَّهما يحطمان ذلك الحاجز انتقاماً من ذؤبيهما ، وزدَّ على ذلك ما يتكبَّده الاثنان من ضروب التفكير العميق الذي يفكرانه في سبيل الوصول إلى بعضهما ، وجعل ذلك بطرق خفية حتى لا يدري أحدٌ ما يدور وراء الستار ، وهذا التفكير العميق يضرُّ كلاهما ، فتجدُ الفتى واجماً في أثناء إلقاء الدرس في المدرسة ، وربما يشرح المدرسُ نظريةً هندسيةً بينما هو يفكر في موعد لقائها ، وكذلك الحال مع البنت ، وكثيراً ما كان لهذا التفكير أثره في مجموعها العصبي ، وما مرض المستريا الذي يصيبُ كثيراً من فتياتنا في سنِّ الإدراك إلا نتيجةً لهذا . فلو أنَّ هذه الحواجز التي يقيمها الآباء أزيلتْ ، وغرسَ في نفسِ كُلِّ من الفتى والفتاة الأخلاق القويمة ، ونشأ من حداثة سنِّهما مختلطين ، لضعفت تلك العاطفة الجائحة إلى حين ، وقويت على أنقاضها الصلابة الجميلة التي لا تتعدى النزعة البريئة والاختلاط الذي يوقظ في النفس حبَّ الجمال ، لأنه جمال فقط ، لا للعبث

والتزول به إلى النوع التجاري الرخيص . وإننا لنقرأ كثيراً في صُحفنا المحلية عن بنات بعض الأسر وهربن مع الخدم لإرضاء لنداء تلك العاطفة التي زادتْها هياجاً القوانين الشديدة التي فرضتها نُظم الأسرة على أولئك الفتيات العذارى .

« وإنه ليعجَّبني كثيراً نظامُ الاختلاط في الأسرة الإنكليزية ، فتجد الطفل يصاحبُ طفلةَ الجيران ، ويلعبان معاً في حديقة منزل أحدهما ، ويبقيان على ذلك حتى سنّ الشباب ، فيتدرّج من اللعب معها إلى الزمالة في الدراسة ، ثم دعوة كلٍّ منهما لصاحبه لتناول الشاي ، وكم يكون فرحُ الأم أو الأب إذا ما أخبرهما ولدهما أو فتاتها أنه سيأخذ أو ستأخذ شاتها اليوم مع صديقتها أو صديقها ! يرحبان بصديقة ولدهما ، ويظهزان لها من ضروب العطف والحنان ما تسرُّ له وترفع صديقها في عينها وتحترمه الاحترام كله . تزامله في دراسته العالية في الجامعة ، فتكون نعمَ الصحبة ، يعيدُ مَعها محاضراته ، فيفتهمان معاً ، ويكونان عضداً لبعضهما ، فيستفيد منها الدقة في العمل ، وهو دأب الجنس اللطيف ؛ وتستفيد منه بما جبل عليه الرجل من الصبر على المكاره ومواجهة الصعاب بشفر باسم ، فيستفيد كل من صاحبه ، ويخرجان آخر العام يشد كل على يد زميلته ويهنئها بالنجاح . »

« والسببُ في تقدُّم الطلبة الإنجليز مع صعوبة الجامعات والإرهاق في العمل بسيطٌ ، لو عرفنا ظروفه واستوعبنا قليلاً منه لوجدنا أنه لا يفوق ذكاء المصري في شيء ، ولم يُخلَق من مادةٍ غير التي خُلِق منها المصري ، وإنما حُصِر تفكيره في عمله وعدم تشعبه في مقابلة فتاته أو كيفية محادثتها . لم يفكر في ذلك وهي بجانبه في المحاضرة وفي العمل ، تبسُّم له ابتسامةً بريئة كلما تقابلت نظراتهما ، ثم يعود كل إلى إتمام عمله بهمةٍ ونشاطٍ . »

محمد حامد شاكر

القسم الفسيولوجي - جامعة ليفربول

يحدثُ الكاتبُ الطالبُ قومَه ويرشِدُهُم إلى ما رآه في الغرب من منهجِ التربية الاجتماعية ، وحبَّه ، من دون توجيه أي نظرة أو أهمية على دين قومِه وآداب آبائِه وأجداده ، وإلى أن قراء مقالِه هذا المنشور في الأهرام بعنوان (أثر البيئة في الاجتماع) لم يُعَدِّموا - وعلى الأقل فيهم من لم يعدموا - بعدُ ميزان عقولهم .

فهل يضمنُ لهم الكاتبُ أولاً أن نظام الاختلاط بين الشاب والفتاة الذي نوه بوجودِه خاصة في بعض الأسر المصرية الأرستقراطية من الذين عاشوا رَدْحاً من الزمن في أوربة ، كان نافعاً لهم وحميداً الأثر ؟

ثم إن الكاتبَ الطالبَ جدُّ عارفٍ بأن ما يحصل في اختلاط الجنسين - ويسميه الصداقة البريئة أو النزعة البريئة أو الابتسامة البريئة - وقد يضاف إليها طبعاً التخاصر والاعتناق البريثان ، لأنَّ الزميل والزميلة الناشئين على آداب الحضارة الغربية لا بد أن يتراقصا في بعض الأحيان - كلُّ هذه البريئات ، مع ما تُوقِظُ في النفس من حُبِّ الجمال ، لأنَّه جمال فقط كما ذكره الكاتب ؛ أسماء وأوصافٌ كاذبةٌ تُذَكِّرُ لمخادعةِ السُّدُجِ ومكافحة الحياء الإنساني تحت ستار الألفاظ البريئة المستعملة في غير مواضعها ، مثل ما يفعل بعض اللصوص فعله تحت اللثام ، وهذا كما يُسمِّي دعاة السُّفور أنفسهم أنصارَ المرأة ، ودعاة الحجاب خصومَها ، والله يعلمُ مَنْ هُم الأنصارُ أو الأعداء ، كما يعلم المُقْبِدُ من المُصْلِح .

وانظرْ إلى قول الكاتب عن نتيجة وضع الحجاب بين الشاب والشابة ، « ففي هذه الحالة يعمل كل منهما على الاتصال بصاحبه لا عن طريق الصداقة البريئة وإنما بغية الاتصال الجنسي الذي مُنِعَ اختلاطُهما من أجله » فكأنَّ الجنسية الخاصة بكلِّ منهما لا تبقى عند إباحة الاختلاط بينهما ، فينقلب كلاهما ذكراً أو كلاهما أنثى ! .

ثم لماذا يكون اتصاله بصاحبِيَّه بريئاً عند إباحة الاختلاط وغير بريء عند منع الاختلاط ؟! فإنَّ أَى الفساد من المنع كما سيأتي بيأنه لا من طبيعة المختلطين

فلا شك في أن مباح الاختلاط أيضاً ممنوع من الاتصال الغير البريء ، فيلزم أن يكون فاعلاً لما منع . فكأنهما يحطمان ذلك الحاجز انتقاماً من ذؤيبهما ، وهذا كما يقال : إن الإنسان حريص على فعل الممنوع ، فكأنهما لو لم يمنعا عن اتصال أحدهما بالآخر ، ولم يقم بينهما حاجز ، لما تهالكا على هذا الاتصال الممنوع ، وعليه فقد يكون في دعاوى أنصار السفور أن الحجاب أدعى إلى الفتنه ، وأنه يشتمل على مفسد يضيق عنها نطاق السفور وإباحة الاختلاط ، وربما تسمع مثل هذه الكلمات منهم ، وكله سفسطة وتضليل ، إذ لو كان المنع عن أي فعل يؤدي إلى وقوع ذلك الفعل أكثر مما إذا لم يمنع وترك مباحاً لانعكس موضوع الأمر والنهي ، وأصبح الحاجز وسيلة ، والوسيلة حاجزاً ، ولزم إلغاء قوانين العقاب الموجودة في الدنيا لكون مفعولها في المجرمين الحث والتحريض على الإجرام انتقاماً من واضعي القوانين ، ولو قال الكاتب : اغتناماً للفرصة التي لا تواتي كل حين مع الحجاب الحاجز لكان أشبه بالحقيقة . أما إذا لم يكن بينهما حجاب ، ولكل منهما الاختلاط والاتصال بالآخر متى شاءا ، فالوقت متسع أمامهما ، ولا حاجة إلى التعجل ، فأوقائهما كلها فرص .

ولاني تذكرت هنا حكاية لا أمضي من دون أن أوردها :

كان رجل وامرأة أجنبية عنه يترافقان في سفر ، فقال الرجل للمرأة : أتدريين ماذا سيكون إذا وصلنا إلى ما وراء هذا الجبل ؟ فقالت : ماذا سيكون ؟ فقال : سأعتدي عليك هناك ، فتأبين ولا تستسلمين لطلبي ، وتصيحين ، وتستغيثن من غير مغيث ، ويقع بيننا عراك عنيف لا يتكهن أحد بمنتهاه . فاستمعت له المرأة ، وقالت : لن يقع شيء مما تخافه علي ، لاني سأوافقك على ما طلبت مني وينتهي الأمر بسلام .

نعود إلى قول الكاتب : « وزد على ذلك ما يتكبده الإنسان من ضروب التفكير الذي يفكرانه في سبيل الوصول إلى بعضهما » وفي هذا مضیعة لهما من

الأوقات والمساعي مع إمكان تسهيل الأمر لأبويهما « وحصل دنت بطرقي . . . حتى لا يدري أحد ما يدور وراء الستار » مع أن المجاهرة أولى من العمل في الخفاء ، وأدل على الشجاعة ، وأجدر بالحرية « وهذا التفكير العميق يضر بكل منها ، فتجد الفتى واجماً في أثناء إلقاء الدرس في المدرسة ، فلو كانت فتاته في تناول يده متى شاء أو بجنبه أو مرأى عينيه لكان هشاً بشاً نشيطاً . ولو كان الكاتب بمن يصلي في المساجد لقال : ولو صلى بجنب الفتيات الحسنان في صف واحد ، أو صلى وهن أمامه في الصف المتقدم يحكين في الركوع أهلة وفي الاعتدال قضبان البان ، لوجد في صلاته لذة لا يجدها في المساجد الغاصة بالرجال ، وأخذ الشبان النافرون من الصلاة يلزمون المساجد وربما يشرح المدرس نظرية هندسية بينما هو يفكر في موعد لقائها ، وإذا رُفِعَ الحاجز وأبيع الاختلاط فذهن الطالب يظل حاضراً معه في كل مكان كما تكون مطلوبته حاضرة فيه « وكذا الحال مع البنت ، وكثيراً ما كان لهذا التفكير أثره في المجموع العصبي ، وما مرض المستريا الذي يصيب كثيراً من فتياتنا في سن الإدراك إلا نتيجة هذا « مسكينات فتياتنا ، يمرضن من فاقتهن إلى فتيان يؤانسونهن ويرافقونهن في المدراس والمنازل والشوارع والمنزهات ، فيستشيقن معهم الحرية والمحبة « وإنا لنقرأ كثيراً في صحفنا المحلية عن بنات بعض الأسر وهروبهن مع الخدم إرضاء لنداء تلك العاطفة التي زادت هياجاً القوانين الشديدة التي فرضتها الأسرة على أولئك الفتيات العذارى » !

لو كان في عقل الكاتب أدنى صلة بالمنطق لنتبه لكون هروب بعض بنات الأسر المصرية مع الخدم نتيجة اختلاط الذكر بالأنثى الذي نحذرُه نحن ، وهو يدعو له ، فلا يعد مثل هذه الحوادث ذنباً على قوانين الأسر المانعة من اختلاط الجنسين ، فهل لا يعتبر الخادم من الذكور أو من الأجانب ، أو لا يعتبر البنت من الإناث ، وهي كما يجب الكاتب تنشأ برفقة الخدام ، وتراه كل يوم ، فإذا كان الاختلاط بالخادم يكفي في إغوائها فما ظنك باختلاطها بفتى من طبقتها ؟ فهذه الحوادث تنعى على دعواه ، في حين أنه يسردها لتدعيمها ! والواجب للأباء

المصريين وغير المصريين أن يجتبروا مَبْلَغَ أبنائهم من الذكاء والعقل السليم قبل مبعثهم إلى مدارس الغرب ، وإلا فلا مانع من أن يكتبوا يوماً إلى جرائد مصر يدعون آباءهم وإخوانهم في علانية وصراحة إلى دين الغربيين الذي وجدوه حقاً مستندين إلى عقولهم التي أريناك بعض نماذج من تفكيرها المَعْوَجَ ! .

وإني أقول في غشيم كلامي عن مقال طالب الجامعة : لِيَحْلَمَ المصريون باستقلال بلادهم ، فقد استعمرَ الغربُ قلوبَ أبنائهم المتعلمين ! واستعمار القلوب أقوى أنواع الاستعمار وأشدّها خطراً وأفتكها بكيان الأمم .

ومن أقوال دُعَاة السُّفور التي يموهون بها باطلهم ، ويظهرونه بِمَظْهَرِ الحَقِّ : « إنَّ ضِمَانِ الْعِفَّةِ فِي النِّسَاءِ الَّذِي هُوَ جَدِيرٌ بِأَنْ يُعَوَّلَ عَلَيْهِ هُوَ تَعْلِيمُ الْمَرْأَةِ وَتَرْقِيَّتُهَا وَإِنَّمَا الْقُوَّةُ الْعَقْلِيَّةُ فِيهَا وَتَرْبِيَّتُهَا وَجَعَلَهَا - أي القوة العقلية - حاكمة على النفس ، فبالعلم والرقي تَقْدَرُ الْفَتَاةُ قَدْرَ عِفَّتِهَا ، وهذا السَّيَاحُ الْمُتَكَوِّنُ مِنَ الْعِلْمِ وَالتَّهْدِيبِ يَقْصِرُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ وَيُضْعَفُ بِكَثِيرٍ أَنْ تَكُونَ مَحْتَجَّةً وَتَعِيشَ فِي عَالَمٍ مَفْتَرَقٍ عَنْ عَالَمِ الرِّجَالِ » .

ونحن لا نعارض لأنْ تَكُونَ فِي الْفَتَاةِ سَجِيَّةٌ تَحْكُمُ بِهَا عَلَى نَفْسِهَا ، وَتُسْتَبَدُّ إِلَى التَّعْلِيمِ وَالتَّرْبِيَةِ ، وَإِنَّمَا نُعَارِضُ أَنْ تُعَدَّ مُسْتَغْنِيَةً بِهَا عَنِ الْحِجَابِ الَّذِي وَضَعَهُ عَلَيْهَا الْإِسْلَامُ ، لِأَنَّا كَمَا عَرَفْنَا أَنَّ سَجِيَّةَ الْحُكْمِ عَلَى النَّفْسِ لَا تَوْجَدُ بِكَثْرَةٍ فِي الَّذِينَ أَخَذُوا نَصِيحَتَهُمْ مِنَ التَّعْلِيمِ وَالتَّرْبِيَةِ ، لَا نَأْمَنُ أَيْضاً عَلَى إِصَابَتِنَا الْوَاقِعَ عِنْدَمَا فَرَضْنَا أَنَا مِنْ مَعَارِفِنَا حَاكِمِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ نُجَاهَ الْمَغْنَاطِيسِ الْجَذَابِ الْكَامِنِ فِي جَمَالِ الْمَرْأَةِ ، أَوْ قَرَضْنَا فَتْيَانَنَا وَنِسَاءَنَا حَاكِمَاتٍ عَلَى أَنْفُسِهِنَّ حِيَالِ إِغْوَاءِ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ ، لَا سِوَا الْعَصْرِيِّينَ الْمُجَهِّزِينَ بِالْمَكَايِدِ الرَّاقِيَةِ ؛ فَتَقْصَانِ الْحُكْمِ عَلَى النَّفْسِ مِنْ أَحَدِ الْجَنْسَيْنِ كَافٍ فِي وَقُوعِ الْفِتْنَةِ عِنْدَ اخْتِلَاطِهَا ، فَتَحْنُ نَخَافُ كَلَّامَ مِنْهَا عَلَى الْآخَرِ ، وَلَا نَرُدُّ الشُّبُهَاتِ الَّتِي تَسَاوَرُنَا ، وَإِنْ رَدَّهَا غَيْرُنَا ، لِأَنَّ الْحُكْمَ عَلَى النَّفْسِ شَيْءٌ يَسْهَلُ قَوْلُهُ وَيَصْعَبُ فَعْلُهُ ، وَمَاذَا يَسَعُنَا أَنْ نَقُولَ عِنَّا بَعْدَ مَا قَالَ سَيِّدُنَا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي ، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾

[١٢ سورة يوسف / الآية : ٥٣]

الحاصل : إِنَّ الْحُكْمَ عَلَى النَّفْسِ شَيْءٌ لَا يَحْدُدُّ وُجُودَهُ وَعَدَمَهُ وَمَبْلَغُ كِفَايَتِهِ وَمَقَاوِمَتِهِ ، وَيَخْفَى أَمْرُهُ فِي كُلِّ أَحَدٍ بِحَيْثُ لَا يَطْلُعُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ ، بَلْ كَثِيرًا مَا يُخْطِئُهُ الْإِنْسَانُ فِي تَحْمِيْنِهِ لِنَفْسِهِ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْمَوَاقِفِ الدَّقِيقَةِ الْخَطِرَةِ ، وَلِلَّهِ دَرُ الشَّرِيفِ الرُّضْيِ الْقَائِلُ :

لَا الْعَفْ عَفَ جِئَ تَمْلِكُ لَبُّهُ
تِلْكَ اللَّحَاطُ وَلَا الْأَمِينُ أَمِينُ

لَا سَيِّمًا وَأَنْ قَدَّرَ الْعِقَّةُ فِي نَظَرِ مَنْ لَا يَتَعَلَّمُ وَجُوهًا مِنَ الدِّينِ ، بَلْ مِنَ الْمَحَاكِمَةِ الْعَقْلِيَّةِ ، لَا يَجَاوِزُ وَرَاءَ أَنْ يَعْرِفَهُ النَّاسُ عَفِيفًا ، وَأَنْ يَكُونَ مَرْكَزُهُ هَذَا عَمْفُوظًا عِنْدَهُمْ ، وَهُوَ غَيْرُ الْعِقَّةِ الْحَقِيقِيَّةِ ، فَمَهْمَا عِلْمُ قَدَّرَ الْعِقَّةُ ، وَمَهْمَا تَمَّ عَقْلُ الْإِنْسَانِ ، وَسَلَّمَتِ عِمَاكِمَتُهُ الْعَقْلِيَّةُ ، فَرُبَّمَا لَا يَكْفِيهِ ذَلِكَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ الَّتِي هِيَ مَزَلَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلْأَقْدَامِ أَيُّ مَزَلَّةٍ ، وَمِنْ جَرَاءِ ذَلِكَ لَزِمَ أَنْ لَا تَسْمَعَ لِلنَّفْسِ أَوَّلَى فُرْصَةٍ وَأَنْ تَسُدَّ طُرُقَهَا ، فَحِجَابُ الْمَرَاةِ مَعْنَاهُ حَجَبُ طَرُقِ الْفُرْصَةِ عَلَى الْنَفْسِ بِأَخْصَرِ وَجْهِ . وَقَدْ اسْتَخَفَّ بَعْضُ كِتَابِ التُّرْكِ - مِنْ أَنْصَارِ السُّفُورِ - بِقُوَّةِ تِلْكَ الْبَرَاقِعِ الْحَرِيرِيَّةِ الرَّقِيقَةِ الْمُلْقَاةِ عَلَى وَجْهِ النِّسَاءِ ، وَمَعَ ذَلِكَ اعْتَرَفَ بِأَنَّ تِلْكَ الْبَرَاقِعَ تَجْعَلُ الْمَرَاةَ كَأَنَّهَا تَعِيشُ فِي عَالَمٍ آخَرَ ، فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ هَذَا اعْتِرَافٌ بِنِكَ بَقُوَّتِهَا ، فَتِلْكَ الْحُجُبُ الرَّقِيقَةُ سُجِفُ الْحَيَاءِ الْمُلْقَاةِ بَيْنَ الْجَنَسَيْنِ ، الْمَانِعَةُ مِنْ اخْتِلَاطِ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ ، تَقْيِدُ اتِّصَالِ الرَّجُلِ حَتَّى بِزَوْجَتِهِ فِي خَارِجِ بَيْتِهِ ، وَتَحْوِلُ دُونَ مَا يَرَاهُ الْإِنْسَانُ فِي بِلَادِ الْمَذْنِيَّةِ الْغَرِبِيَّةِ ، وَقَدْ رَأَيْتُهُ كَثِيرًا فِي شَوَارِعِ بَارِيسَ بَعِينِي مِنْ أَنْ الرَّجُلَ يَمْشِي آخِذًا بِيَدِ امْرَأَةٍ يَتَحَدَّثُ مَعَهَا وَيَقْبَلُهَا فِي غَضُونِهِ عَلَى مَرَأَى الْمَارِينِ (وَمَسْمَعِهِمْ) وَلَا يَلْزِمُ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الْمَرَاةُ زَوْجَتَهُ . فَهَذِهِ حَالَةُ تِلْكَ الْبِلَادِ الَّتِي يَدْعِي أَنْصَارُ السُّفُورِ مِنَّا عَدَمَ كَوْنِهِ فِيهَا مُوجِبًا لِلْفَسَادِ ، وَيَصْدُقُهُمْ فِي ادِّعَائِهِمْ كَثِيرٌ مِنَ الْغَافِلِينَ ، فَلَمَلَهَا قَبْلَاتُ بَرِيئَتِهِ !! وَيُمْكِنُ أَنْ يُسْتَدْلُ عَلَى بَرَاءَتِهَا بِإِقْعَائِهَا جَهَارًا نَهَارًا !! .

ثم إنَّ السُّفورَ بمعناه العصري الذي أوضحناه يعرفُ كلُّ الناس أن الإسلام ياباه ولا يقبلُهُ . ثم بالرغم من ذلك ترى كثيراً من الكتاب المتسمين بأسماء المسلمين يدعون له ، ويشجعون المرأة المسلمة عليه ، ويُنحون على من يخالفونهم باللوائح ، ويعتبرونهم رجعيين ؛ لا يُعَبُّ بقولهم ومخالفتهم ، وهم على الأقل يستمرون في نقاش المخالفين ، مثلاً ترى كاتب (ما قل ودل) في الأهرام ، واسمه أحمد ، وقد صرَّح عند تمجيده لعيد الميلاد بأنه مسلمٌ مؤمنٌ بمحمد ﷺ وبسيدنا عيسى الذي كلَّم في السَّهْد صبيّاً ، وقال : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ، آتَانِي الْكِتَابَ ، وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ، وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَمَا كُنْتُ ﴾ [سورة مريم / الآيتان : ٣٠ و ٣١] . تراه الفئنة بعد الفئنة يصوّب سهام الاحتقار إلى مَنْ لا يرضون بسفور المرأة المسلمة من العلماء والكتاب ، فهل لا يعرف أنَّ الرجعة التي يعيها على مخالفته رجعةٌ إلى الإسلام ! وأنه بهذه السهام البذيئة يكون يرمي دينَ الإسلام ، وكتابه الذي ينصّ على أَنَّ النِّسَاءَ يَضْرِبْنَ ﴿ بِخُمْرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الإِرْزِيَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾ [سورة النور / الآية : ٣١] . فلو سألته ماذا يقول في نصّ القرآن واعتنايته بهذا التفصيل الجليل ؟ فهو لا يحير جواباً ، فكأنه يتعجّب منك ، ويقول بلسان حاله : إنَّ مَنْ يعيش في عصر القرن العشرين ، ويستند في اقتناعاته الاجتماعية إلى القرآن ، فجوابه جواب الأحمق ! ولا يرى من حَقِّكَ أن تتعجّب منه ، وهو مُسْلِمٌ مُتَقَفٌّ يحوم في كتاباته حول مسألة النساء كيف يجهل أطول آية في كتاب الإسلام عن النساء ؟! فإذا قرأتها عليه ، وعلمته إياها ، ولّى مُدْبِراً ، كأنَّ لَمْ يَسْمَعْهَا ! وجعلَ جزاءَ تعلُّمِهِ منك أن لا يراك أهلاً للخطاب ، فكيف أنه مُتَعَلِّمٌ ؟! وكيف أنه مُسْلِمٌ يُؤْمِنُ بما شاء من آيات القرآن ، ولا يُؤْمِنُ بما شاء ، ولا يراه يجدر بأن يكون دليلاً مُسْتَدِلّاً ؟! .

وهناك بعد آية الحجاب ، أحاديث نبوية كثيرة تأمر بستر النساء عن الرجال الأجانب ، وتنتهي عن الاختلاط بهم ، لكن الكاتِب وأضرابه لا يعبأون بالآيات والأحاديث المتعارضة بتقاليد المدنية الغربية مهما فضحت مغبتها ، كأنهم رُسُل تلك المدنية في الشرق بعد رسل الله ، تنسخ أنباؤهم عنها أنباؤهم عنه ! وبالرغم من معارضة هؤلاء الرُسُل المُحدثين لرسل الله ومحاربتهم من وراء الستار ، فإنهم مؤمنون بالله ورسله ومسلمون ! إن كانت دعوى الإيمان والإسلام تتفق مع هَدم معالِمه^(١) ؛ والناس في هذا الزمان العجيب لا يهتمون بتشخيص أعداء الإسلام المختفين تحت أسماء المسلمين النائلين منه في بلاده مالم يثُل كتاب من غير الأمة المنتسبة إليه ، لسهولة اجتراء الأولين عليه تحت جُنة الأسماء وسهولة استماع الناس منهم . وفي مصر كُتاب مسلمون بالأسماء والأدعاء ، خرجوا على دين قومهم ، فقامت الأمة ضدَّهم ، ثم ما لبثت أن اعتبرتْهم تائبين ، وأعادتهم إلى حظيرتها ، وسلَّمت إليهم مقاديرها ! فلو لم يكن لهم شفعاء من أسائهم لما سهَّل عليهم الظهور بمظهر التائب ، ولما قُبِلَ الناسُ توبتهم ، ولو كان الناس مشفقين على دينهم إشفاقهم على أموالهم لأخذوا جذرهم من أن يعيدوهم إلى مآثمهم .

ولا يُعترضُ عليَّ بأنَّ المسلم قد يُخطئ ويقتَرِفُ ذنباً بل ذنباً ، ومذهب أهل السنة أن الكبائر لا تخرج الإنسان عن الدين ؛ لا يُعترضُ عليَّ بمثل هذا ، لأن معصية الله ورسوله قولاً لا تقاس بمعصيتها فعلاً ، ولا يمكن أن يكون المسلم معارضاً لله ورسوله في أقواله وإن أمكنه أن لا تكون أفعاله طبقاً لما أمر الله ورسوله به ، نذكر له مثلاً عن موضوعنا ، كأن تسفِرَ المرأة المسلمة فعلاً السفور العصري ، وتشترك في بعض الحفلات الساهرة بثوبها الغير الكاسي ، بل تعيش طولَ عمرها في السفور الحديث ، ماشية على ما يقتضيه من فنون الانكشاف والاختلاط ، ومماشية في كل ذلك هواها النفساني ؛ فيمكن أن تبقى هذه المرأة على

(١) وللكتاب التركي (جلال نوري) رأي كنه في بعض مؤلفاته ، وهو : إن من دخل في دين الإسلام لا يخرج منه ، لأن فيه خزاناً .

إسلامها وإن كان استمرارها عليه يُضَعِّفُ جداً احتمال بقائها مسلمة ! فهذا فِعْلُ المعصية لا يعتبر بمجرد مَرُوقاً من الدين ، وله دافع يدفعها إليه من الطبيعة الجنسية ، فلعل الله يَغْفِرُ لها من أَجْلِهِ ، وكذلك موقف الرجل المختلط بها ، المستفيد من سفورها فِعْلاً ؛ أما القولُ المعارضُ لصراحة القرآن الأَمْرَ بِسِتْرِ النساءِ ، فهو أَشَدُّ من الفِعْلِ ، وحسب قائل ذلك مَرُوقاً من الإسلام ، إذ ليس له دافعٌ طبيعي غير عدم الإيمان بالقرآن .

فالسفور لا يمكن أن يدعى له أو يُدافع عنه في بلدة إسلامية كمصر بقلم كاتب مُسلم ، ومن جَرَاء ذلك كان آخر قولي للداعين والمدافعين أن المنطق والأخلاق والشجاعة يحتم عليهم أن يقلعوا عن دعوتهم ودفاعهم ، أو عن دَعْوَى أنهم مسلمون ولو بأسمائهم ، وقد آن للحكومات الإسلامية أن لا تَسْمَحَ للملاجدة الناشئة في بلادها أن يندرجوا في سجل المسلمين إن لم تقدر على أن تعاملهم معاملة المرتددين . نعم ! إنَّ السفورَ يجدرُ به أن يدعى له جَهَاراً في بلاد صرَّحتْ حكومتها بانتزاعها عن دينها ، مثل تركيا الحديثة .

وإذا كُنْتَ اعتبرتُ الفِعْلَ المجردَ أهونَ شراً من القول في المعاصي مثل السفور ، فإني استثني منه ما قرأته في مقالة كُتِبَتْ لِذِكْرِى سعد [زغلول] مِنْ أَنَّهُ هو الذي كشف بيده الستار عن النساء في محضر بُعُولَتِهِنَّ ، وَعُدَّ ذلك من مَنَاقِبِهِ ! لأن فِعْلَ زَعِيمٍ عَظِيمٍ مثل سعد يعتبر كوضع قانون لجزبه وتعليم المنحازين إليه ، وليس لهذا الوَضْعُ والتعليم دافعٌ طبيعي إليهما ، فلا يغتفر ذلك الفعل له ، ويلحق بالقول والأمر .

وكأنَّ بعلماء الدين سكتوا عند وقوع تلك الحادثة احتراماً لِسَعْدٍ ، أو انتقده عليه قليل منهم من غير تصريح باسمه ، كما هو المعتاد عند علماء مصر في النقد ، لكنَّ النهي عن المنكر ليس بجهاد مع الهواء ، وإنَّ الحقَّ وخاطر الإسلام أكبر من سعد وألف سعد ، وإني تذكَّرتُ هنا سعداً الصحابي وقول النبي ﷺ فيه : « تَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ ! وَاللهُ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي » .

قد يقولون : إنَّ سفورَ المرأة من لوازم النهضة التي يحتاج إليها المسلمون ، ومن أجل ذلك التزمه سعد ! وأنا أقول : العهد الذي بلغت نهضة المسلمين فيه أشدها لا شك أنه عهد سيدنا عمر الفاروق ، وما بلغت أي أمة في أي أدوارها مبلغ تلك النهضة ، ولن ترى الدنيا مثل ما قام به المسلمون في ذلك العهد الذهبي من الأعمال الجليلة ، ومع هذا ، فإنَّ أولَ مَنْ قال بلزوم الحجاب للنساء كان هو سيدنا عمر ، ثم نزل القرآن على وفقِ قوله رضي الله عنه . هذا ، وتأمل الفرق بين وضع الحجاب بعد أن لم يكن وبين رفعه بعد أن كان ودام طيلة تاريخ الإسلام ، ثم تأمل قول سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه : « لَنْ يَصْلَحَ أَمْرُ آخِرِ هذه الأمة إلا بما صَلَحَ بِهِ أَوَّلُهَا » .

بقي أنه لا يجوز لقراء مقالتي عن السفور والاحتجاب أن يحسبوني لا أوافق على تعليم المرأة كما لا أوافق على سفورها ، وهذا الحسبان منهم يحتمل أن يكون منشأه أن أنصار السفور يحتكرون لأنفسهم نصرة تعليم المرأة أيضاً ، وكل بدعة مضادة للإسلام تروج في زماننا باسم العلم ، حتى أن اللادينية يعبر عنها عند معتنقيها بـ (العلمانية) تمسحاً أو تستراً ! وأنت كثيراً ما تصادف هذا التعبير في جرائد مصر تستعمله بمعنى اللادينية من غير حياء من العلم ، ومن غير أدب مع أهل الأديان من قرائها ، يمتنعها عن نسبتهم إلى الجهل المفهومة من ذلك التعبير ، ولا أقل من احتقارهم بأنهم لا يفهمون مغزى إطلاق ذلك اللفظ على مبدأ اللادينية .

نعم ! إنني لا أمنع المرأة عن التعلم ، ولا من التبخر في العلوم لَنْ يُسْتَشْعَرُ منها النبوغ ، لكن بشرط أن يكون كل من التعلّم والتبخر في مدارس خاصة بالنساء لا يخالطهن الطلاب الذكور ، ومدرساتهن منهن ، فإن لم يوجد فيهن من يكفي لتدريس الدروس العالية ، يتدب العلماء من الرجال يلقون الدروس على طالباتهم الممثلات الشباب وعلى رؤوسهن حُرُهن ، ولا أجيز طبعاً بَعَثَ الفتيات إلى بلاد

الغرب ليتعلَّمَنَ في مدارسها ، وإذا كان لا بُدَّ من تلقِّيهِنَّ الدروس أمام علماء تلك البلاد ، فاستجلاب عدد منهم إلى بلادنا وتوظيفهم بمدارسنا أسهل وأسلم من إرسال أفواج من بناتنا إلى بلادهم يعشنَّ فيها عيشة بنات الإفرنج ، ويعدُنَّ بعد سنوات لم يبقَ معهنَّ من الإسلام إلا اسمه ، ومن قوميتهنَّ إلا لغتها ، واستمع في ذلك الحين استقباهنَّ من الصحفيين المتفرنجين بأنواع التحجيز وأفانين التمجيد ! والإسلام ضائع بين هذه الضوضاء المخدرة ، وما أشدَّ غفلة الآباء والأمهات المبتهجين الفخوريين بتلك البنات ! وأي ارتياح واطمئنان للطئع السليم إذا أبدل الإنسان بَنَتَهُ بغيرها ، ولو كانت البدلُ أعلم من المبدلِ منها ؟ .

وليست النهضة المنشودة للبلاد أن تحصل فتيات من بنات أشرافها على دكتوراه أوربية في بعض العلوم ، أو تكون لأغنيائها سيارات فخمة يرون الدنيا من شباكهها ، وتكون صلتهم بجمهور مواطنيهم أن يصعبوا عليهم المشي في الشوارع حذراً من مصادمِ سياراتهم السريعة السير ، والعالم يرى حال الجمهور المصري ، ويرى مَنْ يركبُ السيارات العمومية أو الترام نماذج من الرجال والنساء يتنافسون في الركوب والنزول والجلوس ، يحاول كل منهم أن يشغل من المقاعد أكثر مما يكفي لواحد ، ويبقى لجاره الأقل ، وكثيراً ما يظأ رجله ويذرو دخان سيجارته على وجهه ، أو يلقي رمادها على ثوبه ، وربما ترى بجانب امرأة احتضنت طفلاً يتزاحم الذباب على مآقيه وشفثيه الملوثة بمخاط أو بقية طعام ، يُندمك منظره على ركوب العربَة ؛ وعند المشي في الشوارع يُشيرُ عليك عمال التنظيف الغبار . قارنوا ملايين المِصريّات من أمثال أم هذا الطفل مع فتيات مصريات من خريجات المدارس العالية الغربية متجردات عن حجابهنَّ وملتحقات بنساء الغرب ، وانشدوا المِصريّات المهذبات الضائعات بين هذين الفريقين ، ولا يستطيع من يعيش بمصر دون أن يرى أناساً غارقين في التمسك بتقاليدهم ، حتى القبيح منها ، أو أناساً نازعين بكلّيتهم إلى التجدد والتفرنج .

وعند كتابة هذه السطور ، قرأتُ يومية الأستاذ الصاوي في الأهرام وهو يسعى جُهد طاقته لتعميم اختلاط الشبان بالشواب في مصر ليعرفوهن ثم يضطفوا منهن الزوجات ، وقد أيدَ مذهبه هذا بنشر خطاب ورد إليه من الدكتور ص. ن يقول : إنه ثائرٌ على نظام مجتمعنا المصري ، وقد قضى عشر سنوات بين ألمانية وفرنسة وإنكلترة ، ورأى مقدار الرجعية التي بُليت بها عائلاتنا ! .

وأنت أيها القارئ قد عرفتَ مما أسلفنا من القول مدى ذلك الاختلاط والتعرف والتفتن فيهما ، وتنقل الشبان بين الغيتات استيفاءً لحق الاصطفاء والاستفراء ، مما يؤدي إلى استغنائهم عن الزواج . وأصدق شاهد على ذلك أن أزمنة الزواج أشدَّ والعزَّاب أكثر في بلاد الاختلاط منها في الشرق ، لكن الأستاذ الكاتب الذي يفتا بيت في مسائل الاجتماع دنيوية أو دينية لا يثنيه منقول ولا معقول .

وكنْتُ قرأتُ قبل يومين في الأهرام لكاتب (على الهامش) مقالةً تنددُ ببقاء الطربوش على رؤوس المصريين ، وتعدُّه كارثة اجتماعية ، ونكبة صحية ، وعنوان الجهل والتأخر ، ولا يرى له أي اتصال بقومية المصريين ، إلا أن الأتراك استعبدوهم مدةً من الزمان وتركوا أثر ذلك على رؤوسهم ، ثم يُفتي الكاتب بوجوب لبس القبعة زي المدنية الذي اختاره اليوم حتى الأتراك أنفسهم بعد نبذ الطربوش ! .

وإني استشعرُ في هذا القول الشاكي من استعباد الترك أثر استعباد الإنكليز أو استهواء الأتراك الحاضرين في زُيهم الحديث لهذا الكاتب المصري وأضرابه ، حيث لم تكن قبعة الإفرنج مرغوباً فيها لبعض الشرقيين ، لا سيما المسلمين ؛ إلا بعد أن اختارها ملاحدة الترك ، فصارت مخنثة لغيرهم ، ونبذوا الطربوش ، فأصبح منبوذاً ، استشعرُ هذا الاستعباد الجديد الذي تضاعف كونه زياً وطنياً لمصر بهمة جمعية مشروع القرش وما أنفقته في مصنوعات ، ولا يكون شيء أدل على الجهل والتأخر من اعتبار الطربوش عنوان الجهل والتأخر . هذا مع أن لبس القبعة

لا يجوز للمسلمين كما استوفيتُ حق إيضاحه في تأليف مفرد . لكن في صدر كل جريدة مصرية مُفتين من المسلمين والمسيحيين يُغنون عن مفتي الديار المصرية !؟ .

وكان السبب في استئناف مسألة الطربوش والقبعة في الأهرام إمطار السماء مساء يوم من أيام الأسبوع الماضي ، أمطرت فأحوَجَتْ بعض الطرابيش إلى تجديد كَيْها ، والمطرُ لا ينزلُ في مصر إلا نادراً ، ولا يكلف لابس الطربوش من المصاريف ما يُذكرُ ، ولا يعادل مجموعُه سعر القبعة لا سيما من نوعها الفخم ، مع أن للطربوش من جمال المنظر في عيون الشرقيين ما لا يوجد في القبعة ، ولا يُضْحَى به لأجرة المكوى اللازمة في النادر ، وإني أظن أن بعض غلاة التجديد في مصر جرّبوا لبس القبعة في العلانية أو الخفاء فاستقبحوا بها وجوههم ، حتى رضوا بطرابيشهم ! وكم نسمع حشرات الشعب التركي وتشوّقه إلى الطرابيش ، لولا أن السيف مُصلّتٌ على عنقه .

وبالنظر إلى كل ما يمتُّ بصلّة إلى الشرق والإسلام ، حتى الأخلاق والآداب وأستار الحياء وخدور النساء وعمائم العلماء ، أصبح عرضةً للنّبذ والتبديل بآتفه الأسباب ، فلا مانع - كما كتبتُ فيما علّقته على قول الكاتب الطالب في جامعة ليفربول - من أن يكتبَ كاتب في إحدى الصحف بالقياس على قول كاتب الهامش : « إن بقاء البلاد المصرية على الإسلام أثرٌ من استعباد الأتراك الذين صمّدوا تحت راية الدولة العثمانية في وجوه الدول الصليبية التي خضعت أمام قوة تلك الدولة قروناً ، وأجمعت أمرها وشركاءها للعمل في كَيْدها وإضعافها قروناً أخرى ، وعاش الإسلام مدة تلك القرون الطويلة مستنداً إليها ، ولم يخطر في خلد أي دولة نصرانية فكرة تنصير أي قوم من الأقوام المسلمة ، حتى إذا انقرضت هذه الدولة بعد اللُتيا والتي ، ارتدت تركية عن دينها ، وتوالت الاعتداءات على دين الإسلام في أنحاء العالم من الداخل والخارج حتى غدا لا يُحترَم في بلاده وبين أبنائه ، وتجراً اليهود الذين ضربت عليهم الذلّة والمسكنة لتأسيس دولة قومية لهم في وسط بلاد العرب ، ولا يعلم غير الله مقدار عمر الإسلام بعد هذه العلامات

الباعة على التشاؤم ! فهل ينبغي للمصريين سلالة الفراعنة ذوي المجد - على تعبير هدى هانم شعراوي في خطبتها عن نهضة المرأة المصرية ، الخطبة التي أذاعها الراديو قبل أيام ، فطُنت في فضاء مصر - فهل ينبغي للمصريين بعد نبذ الأتراك أنفسهم الإسلام بفضّل مجدّدهم الأعظم ! أن يستمسكوا به وهو عنوان التأخر^(١) ؟! وفي مصر مجدّدون إن لم يستطيعوا القيام بالقضاء على الإسلام ومعالجه بسيوفهم فهم قادرون على القيام به بأقلامهم .

نعود إلى ما نحن بضدّه :

ثم إنّي اختارُ في غير النواذر من البنات أن يكون تعليمهنّ مقصوراً على ما يهيئهنّ في تدبير منازلهنّ أو تربية أولادهنّ وتهذيب أخلاقهنّ ، وعلى قواعد حفظ الصحة والانتظام والاقتصاد ، وخلاصته إعدادهنّ لأن يكنّ خير أمهات وخير زوجات ، لا ليكنّ عدلاً للرجال في جميع الأعمال ، لأن ذلك لا يمكن ولا ينفع ، ودعوى مساواتهن بالرجال علة معنى أن المرأة تصلح لكل ما يصلح له الرجل كما نقلت إحدى الكاتبات الشهيرات بمصر عن أفلاطون الحكيم ، وكتبته بجانب عنوان مقالها المنشور في الأهرام : « ليس من عمل في نظام الهيئة الاجتماعية تختص به المرأة كامراً أو يختص به الرجل كرجل ، لأن الطبيعة ساوت بين الرجل والمرأة فيما منحتهما من النعم والمواهب ، ولذلك يحق للمرأة أن تقوم بكل عمل يقوم به الرجل رغم كونها أضعف جسماً منه » - دعوى فارغة ، أفضت في إبطالها بعض الإفاضة في المقال الموضوع لمسألة تعدد الزوجات ، مع أن أفلاطون يناقض نفسه عند دعوى المساواة ، ويعترف بكون المرأة أضعف جسماً من الرجل ، فهل ليست زيادة الحظ في القوة الجسدية من نعم الفطرة ومواهبها ؟ مع أن الامتياز بزيادة القوة هو عنوان السيادة في العالم ، به تفتح البلاد ، ويحكم الأمم بعضهم

(١) وفي اعتبار الطربوش عنوان الجهل والتأخر إشارة إلى هذا المعنى .

على بعض ، فَحَسْبُكَ ذَلِكَ فِي نَقْضِ دَعَاوى الْمساواة ، ولذا قال الشاعر :

خَلَقَ اللهُ لِلْحُرُوبِ رِجَالاً وَعَلَى الْغَايِبَاتِ جُرَّ الدُّيُولِ

وفضلاً عن ذلك ، فلو فُرِضَ بِلَوْغِ المرأةِ من مساواة الرجل مَبْلَغَ أَنْ تَصْلُحَ لكلِّ ما يَصْلُحُ له ، فهي لا تَقِفُ في حَدِّ المساواة به بل تَفُوقُه ، لأنَّ الرجل لا يَصْلُحُ لكلِّ ما تَصْلُحُ له المرأة ، فهو لا يقدر على حَمْلِ الجنين في بطنه ، وولادة الولد ، وإرضاعه ، وحضائيه ، ومحبَّته ، وخدمته ، والحنان والشفقة عليه ؛ كما تحضنه المرأة وتمجبه وتخدمه وتمنُّ وتشفق عليه ؛ فدعوى المساواة للمرأة المُنْتَهية إلى تَفُوقِها عليه تستلزمُ خلافَ المفروض ، وهو باطلٌ ، ويستبين منه بطلان الدعوى أيضاً .

وقد رأيتُ الكاتبةَ التي استشهدتْ بكلام أفلاطون على مساواة المرأة بالرجل تحوّلت في مقالاتها المشار إليها من دعوى المساواة إلى دعوى تَفُوقِ المرأة على الرجل ، حيث قالت : « اختصاصُنا بالأمومة معناه أنا زوْنا بامتيازٍ عظيم عن الرجل ، بما يستلزمه ذلك الامتياز من مواهب وقوى وتصرفات . ذلك إلى جانب مشاركتنا الرجل فيما اختصَّ به » وعند الصفح عن دلالة هذا الكلام على أن دعوى مساواة المرأة بالرجل التي طالما اجتهد في إثباتها المجتهدون تُبْطِلُ نَفْسُها ، فليستعدَّ محامو المرأة من الرجال بخيلهم ورجلهم ، فقد أتيح لهم واجبٌ جديدٌ من إثبات رجحانها على الرجل فضلاً عن دعوى تساويها . ولعلَّ مجاوزتهنَّ درجة المساواة بالرجال إلى رتبة التّفوقِ حَوَلَتِ المرأةُ العصريةَ حقَّ الزيادة في سفورها على سفور الرجل أضعافاً مضاعفةً ، حتى بَرَزَتْ في الاندية والمحافل نصف عُرْيانة !!! .

وإذا عُدْنَا إلى جَدِّ القول ، فهذه الحالة وحدها ، أعني : توغُّل النساء حديثاً في السفور أمام الرجال ، وفيما يحاكيه من التبرُّج قديماً وحديثاً ، التوغل الذي عُنيْنَا بِلَقِّ النظر إليه في مقالاتنا هذه ، والذي لا مراء في أن الغَرَضُ منه اكتساب المكانة

لهن عند الرجال مما يدل دلالة باهرة على احتياجهن واستنادهن إليهم في الحياة ، والذي لا تستغني عنه عامتهن وخاصتهن وقديمتهن وحديثهن ، والذي لا يقابلهن الرجال بمثله ، مع أن حاجتهن إليهن في الميول الجنسية ليست بأنقص من حاجتهن إليهم إن لم تكن أشد ، فتوغل الحديثة في السفور والتبرج أمام الرجال ظاهراً ، والقديمة المحتجة أيضاً تتوغل في السفور والترين أمام رجل تختص به ، أعني زوجها ، حتى المرأة التي تنفق ثمناً على زوجها في سبيل زواجها به وتعطيه (دواة) عكس الزواج الإسلامي الذي يعطي فيه الزوج زوجته مهراً ، تُزف إلى زوجها وتبرج له ، ولم يسبق في الدنيا أن رجلاً زف متبرجاً إلى زوجته كما تُزف العروس إلى عريسها ! ولن يأتي عليه هذا الموقف في الزمان الآتي ، فالتبرج وجد في الدنيا مع المرأة ، ويفنى بفنائها ، ولن يغير هذا النظام الغريزي الاجتماعي أي انقلاب يحدث في المرأة من التعليم والتكامل والاشتراك في أنحاء العمل مع الرجل ؛ فهذا التوغل منهن في السفور والتبرج الحديثين أمام الرجل ، ورسوخ الزينة فيهن ، بحيث امتزجت بدمايتهن وأرواحهن ، هذه الحالة المشهودة وحدها كافية في الدلالة على أنهن خلقن للرجال أكثر من كل شيء ينبىء عن الاستقلال ، في حين أن الرجال خلقوا للقيام بوظائفهم في الحياة ، فأين مساواتهن بالرجال بلة توقفهن عليهم ؟! وأين قول أفلاطون الحكيم أو قول كاتبة المقالة المشار إليها (زينب الحكيم) من قول القرآن الحكيم : ﴿ أَوْ مَنْ يُنشأ فِي الْجَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [٤٣ سورة الزخرف / الآية ١٨] وقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ [٣٠ سورة الروم / الآية ٢١] فلو اجتمعت الإنس والجن وشياطين الزمان على أن يأتوا في تحديد موقف المرأة في الحياة بأبلغ من هاتين الآيتين ما استطاعوا ، ثم لا ينقص هذا الموقف ما تستحقه من الاحترام الفائق ، قال الله تعالى : ﴿ وَوَضِعْنَا الْإِنْسَانَ بِالْذِّكْرِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ [٤٦ سورة الأحقاف / الآية ١٥] وقال ﷺ : « أُمُّكَ ، ثُمَّ أُمُّكَ ، ثُمَّ أُمُّكَ ، ثُمَّ أَبَاكَ ، وقال : « الْجَنَّةُ

تَحْتَ أَقْدَامِ الْأُمّهَاتِ .

وفي الآية والحديثين إشارة إلى أن أشرف أوصاف المرأة كونها أمّاً ، وبه تمتاز وتتقدّم على الرجل عند المقارنة بين الجنسين ، ويمتلئ فراغ نقصانها بالنسبة إليه امتلاءً يذهب بها من النقصان إلى الزيادة والرّجحان ، لا أنه ينضمّ إلى المساواة الحاصلة بدونه ! فيقلبها زيادة كما زعمتِ الكاتبة ! .

« تَمْ »

السفور والخلاعة

لَمَّا أَطْلَعَ الشاعر الكبير الأستاذ محمد حسن النجيبى على هذه الفصول النفيسة في صحيفة «الفتح»، جاشت شاعريته بالقصيدة الآتية :

رَعَمَ السُّفُورَ وَالْاِخْتِلَاطَ وَسِيلَةَ	لِلْمَجْدِ قَوْمٌ فِي الْمَجَانَةِ أَغْرَقُوا
كَذَبُوا مَتَى كَانَ التَّعَرُّضُ لِلْخَنَا	شَيْئًا تَعَزُّ بِهِ الشُّعُوبُ وَتَسْبِقُ
أَيُّكُونُ كَشَفُ السُّوَاتَيْنِ فَضِيلَةَ	فَيَذِيعُهَا هَذَا الشَّبَابُ الْأَحَقُّ
مَا بَالُهُمْ وَالْبَيْتُ قَدْ فُتِنَتْ بِمَا	قَالُوا وَحَلُّ بِهَا الْجُنُونُ الْمُطْبِقُ
وَبَدَتْ مَقَاتِلُ عِرْضِهَا لِرُمَاتِهِ	حَتَّى لَهْمٌ بِهِ الْجَبَانُ الْأَخْرَقُ
وَالْقَوْلُ أَصْبَحَ فِي الْخُرُوجِ لَهَا فَلَا	كَفْ تَكْفٌ وَلَا رَسَاجُ يُغْلَقُ
كَرِهُوا الزَّوْاجَ بِهَا وَبَاتَتْ سُوقُهَا	بَعْدَ التَّبَدُّلِ عِنْدَهُمْ لَا تَنْفَقُ
مَا خَطْبُهُمْ كَلِفُوا يَنْزِعَ حِجَابُهَا	وَتَكَلَّفُوا فِيهِ الْيَبَانَ وَنَمَقُوا
وَتَنَاولُوا بِالضَّعْفِ مِنْ حَاجَاتِنَا	وَاللَّيْنِ مَا هُوَ بِالصَّرَامَةِ أَخْلَقُ
أَغَذَتْ مَشَاكِلُنَا الْكَبِيرَةَ كُلُّهَا	ذِيلاً يُجْرِجِرُهُ السُّفُورُ الْمُطْلَقُ
أَمْ أَنَّهُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ وَغَرَّهُمْ	يَبْرِيقُهُ هَذَا الْجَدِيدُ الْمُخْلَقُ



أَشَابَنَا الْمَرْجُو صَنِحَةً جَارِعَ	أَغْرَى بِهَا هَذَا الْبَلَاءُ الْمُحْدِقُ
وَنَصِيحَةً يُفْضِي بِرَائِعِ سِرِّهَا	لِقَوَامِ نَهْضَتِنَا مُحِبٌ مُشْفِقُ
لَا تُرْهِفُوا سَمْعَ الْحَفِيِّ لِقَالَةِ	أَبْدَأْ بِهَا بَوْمُ الْبَطَالَةِ تَنْعِقُ
لَمْ يَقْصُدُوا خَيْرًا بِهَا ، لِكِنَّهُمْ	رَأَوْا الْقَوِيَّ يُسَيِّغُهَا فَمَلَّقُوا
وَلَرُبَّمَا اجْتَرَحَ الْقَوِيُّ خَطِيبَةً	فَمَضَى الضَّعِيفُ بِمَذْجِهَا يَتَشَدَّقُ

قُوا أَهْلَكُمْ وَنَفُوسَكُمْ عَاراً إِذَا
 وَتَنَاولُوا بِالزُّجْرِ حُمْراً كُلَّمَا
 لَيْسَ التَّمَدُّنُ أَنْ نَرَى رُوحَ الْحَيَا
 وَالْبَيْتُ يَذْفَعُهَا بِرَاحَتِهِ الْهَوَى
 لَكِنَّهُ الْعِلْمُ اهْتَدَى بِضِيَائِهِ
 لَمْ تَتَّقُوهُ بِغَيْرِكُمْ لَا يَعْلَقُ
 هَبَّتْ إِلَى مَتَعِ الْإِبَاحَةِ تَنَهَوُ
 بِيَدِ الْخَلَاعَةِ كُلِّ يَوْمٍ تَزْهَوُ
 فَتَرُوحُ تَهْوَى مِنْ تَشَاءُ وَتَعَشَوُ
 غَرَبَ الْبَسِيطَةِ حِينَ ضَلَّ الْمَشْرِقُ
 النُّجُومِي

المحتوى

٣	ترجمة المؤلف مصطفى صبري
٩	مقدمة

١ - مبدأ تعدد الزوجات

١٢	الاعتراف بجواز تعدد الزوجات ضروري للمسلم
١٣	هل تفضل المرأة أن يتزوج زوجها من أخرى أو يتخادنها
١٥	مضار الزنا أعظم من تبعات الزواج بأكثر من واحدة
١٥	كلمة الدكتور مظهر عثمان بك في تعدد الزوجات
١٦	وجود المتغيرات بأعراضهن دليل على زيادة عدد النساء على الرجال
١٧	المرأة والرجل بالنسبة إلى مسألة التعدد
١٨	اختجاب وتعدد الزوجات وتسهيل الطلاق من موانع الفسق
١٩	عدم تصعيب النكاح بتحديد سن الزواج
١٩	إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان
٢٠	الإسلام يتوسط بين ضيق المبدأ المسيحي وفوضى الاشتراكية
٢٠	تعدد الزوجات الشرعي والتعدد من غير زواج
٢٢	إذا ثقل التعدد على إحدى النساء ففيه منفعة لأخرى من جنسها
٢٣	إكثار التناسل في الأمم، ومكابرة جناب شهاب الدين بك

٢ - السفور والاحتجاب

٢٥	السفور من آثار البداوة، والاحتجاب مقيد للفوضى بوازع ديني أو خلقي
٢٦	الحجاب يناسب الغيرة المستمدة من الروح، والشهوة هي التي تغري بالسفور
٢٦	القضاء على الغيرة ينافي الفطرة والفضيلة
٢٧	نصيحة شاعرة فرنسية لنساء الشرق

٢٨	نحوّل السفور الآن إلى نصف عربي
٢٨	وصف الشعراء للحمامات البحر بالإسكندرية
٣١	كلمة كاتب من النّوّاب
٣١	شكوى كاتبة من عواقب السفور
٣٣	بعض مغالطات كاتب ما قلّ ودل
٣٧	مسألة التعارف قبل الزواج
٣٩	العشرة قبل الزواج تعرقل الزواج
٤٣	مسؤولية الزوج الذي أباح لصديقه الاختلاط بزوجه فأغراها
٤٤	اعتقاد الغربيين رؤية النساء عاريات الأعضاء
٤٦	نقض مزاعم في الرقص وفائدته
٤٨	المتعوّد مجالسة النساء وحديث العهد بتلك الأحوال
٥١	اختلاط الغربيين والغربيات في سنّ مبكرة
٥٦	استعمار الغربيين قلوب أبنائنا شر من استعمارهم البلاد
٥٦	علاقة التعليم بضمّان عفة النساء
٥٨	السفور بمعناه العصري يأباه الإسلام
٦٠	قد يغفر الله للمسافرة وأما دعاء السفور فمارقون من الإسلام
٦٠	قد آن للحكومات الإسلامية أن لا تدرج الملاحدة في سجل المسلمين
٦١	الحجاب لا ينافي النهوض والإسلام لا يمنع تعليم المرأة
٦٢	بماذا يكون النهوض؟
٦٣	استطراد إلى الطربوش والقبعة
٦٥	التعليم الذي يحتاج إليه بنات المسلمين
٦٥	قضية مساواة النساء بالرجال
٦٦	تزوين النساء للرجال دليل احتياجهن واستادهن إليهم في الحياة
	* * * *
٦٩	السفور والخلاعة (قصيدة الأستاذ النجمي)
٧١	الفهرس

